المنهج والمعجزة معا

كلمة القرآن تقوم على تفهم الذى تقرؤه، لأنه قرآن، قرأ قرآنا، مثل غفر غفرانا، وهو علم نزل على النبى صلى الله عليه وسلم بقصد التحدى، ويسميه الله كتابا، إذن هو قرآن إذا لاحظت القراءة، وهو كتاب إذا لاحظت الكتابة، والقراءة تستلزم حافظاً يقرأ، والكتابة لا تستلزم حافظاً.

فالإنسان حين يقرأ من كتاب ليس محتاجا إلى الحفظ، ولذلك فللقرآن وسيلتان من وسائل الحفظ، يحفظ فى الصدور، ويسجل فى الصحف؛ حتى لا يضيع بين الحافظين.

وحينما كتب القرآن كان زيد لا يكتب شيئا إلا إذا وجد مكتوبا، وهناك اثنان من الحافظين، وهكذا اشتراكا فى الكتابة والحفظ معا فى تدوين القرآن الكريم وجمعه، وكان لا يكتفى بحافظ واحد، بل بحافظين، حتى إذا نسى أحدهما ذكره الآخر، وكان هذا هو أساس جمع القرآن الكريم فى مصحف، ولكن زيد شذ عن القاعدة فى آية واحدة، تلك الآية وجدها مكتوبة، ولكن كان لها حافظ واحد، ولكن انظروا إلى الخواطر الإيمانية حين يقذفها الله سبحانه وتعالى لاستكمال منهجه، الآية وجدها زيد عند خزيمة، ولم يكن هناك أحد يحفظها غيره، ولكنها مدونة ومكتوبة، حينئذ تذكر زيد كلمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم: «من شهد له خزيمة وأشهد عليه فحسبه»[1].

وكان الرسول قد أعطى خزيمة نصاب الشهادة وحده، وهذا له حادثة يجب أن نرويها، فقد كان هناك رجل قد استدان منه رسول الله صلى الله عليه وسلم مالا، فجاء الرجل وطالب بالمال، فقال الرسول، لقد أعطيتك المال، فقال الرجل أريد شاهدا على ذلك، ولم يكن أحد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما أعطى الرجل المال، فجاء خزيمة ابن ثابت وقال يا رسول الله: أنا كنت موجودا وأنت تعطيه هذا الدين، فانصرف صاحب الدين على الفور، ولكن رسول الله التفت إلى خزيمة، وقال له: يا خزيمة أنت لم تكن موجودا حينما أديت الدين لصاحبه، فكيف قلت إنك كنت معى، ورد خزيمة: يا رسول الله أنصدقك فى كل ما جئت به من أمور الدين موحى إليك من الله سبحانه وتعالى، ثم أكذبك فى بضعة دراهم.

كان فكر خزيمة أن رسول الله إما أن يكون صادقا، وإما أن يكون غير صادق، وما

---

(١) جزء من حديث رواه الحاكم فى المستدرك [٢/ ٥٩/ ٢١٨٨]، والبيهقى فى الكبرى [٢٠٣٠٣]، والطبرانى فى المعجم الكبير [٤/ ٨٧/ ٣٧٣٠] عن خزيمة بن ثابت رضى الله تعالى عنه.

دام هو صادقا فى المنهج، فلابد أن يكون صادقا فى الدين، وفى أنه رد هذا الدين لصاحبه، ذلك أن عدم الصدق فى واقعة الدين يلغى الصدق فى كل ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن هنا فلابد أن يكون رسول الله صادقا فى كل ما قاله، وهذا الدّين كاذب، وهكذا تقدم خزيمة للشهادة، على أساس المنطق الإيمانى، وهنا قال رسول الله: من شهد له خزيمة وأشهد عليه فحسبه، وبذلك تم تسجيل الآية.

إذن.. فالقرآن قرآن لأنه يقرأ، وكتاب لأنه يكتب، وإذا أردنا أن نعرف القرآن التعريف الحقيقى، فهو يبدأ بالفاتحة، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝﴾ [الفاتحة]. حتى آخر سورة ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [الناس: ١].

وبعض الناس يقول إن القرآن كلام منزل على محمد صلى الله عليه وسلم، بقصد التحدى والإعجاز فى منهج الله، ولكنك لن تعرف ما هو القرآن إلا إذا قرأته من أوله لآخره، وهناك كتب نزلت من الله سبحانه وتعالى، فالتوراة والإنجيل وصحف موسى، هى كلام الله، ولكن هذه الكتب كان مقصودا بها المنهج فقط، بينما القرآن الكريم يحمل المنهج والمعجزة الدالة على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فموسى عليه السلام كان منهجه التوراة، ومعجزته العصا، يضرب بها البحر فينفلق، ويلقيها أمام السحرة، فتتحول إلى حية تأكل ما يصنعون، ويضرب بها الحجر فينبعث منه الماء.

والإنجيل هو منهج عيسى عليه السلام، أما معجزاته فكانت إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله.

إذن.. فالمعجزة شىء، والمنهج شىء آخر، ولكن القرآن الكريم تميز بأنه المنهج والمعجزة معاً؛ لأن القرآن نزل على نية الثبات، إلى أن تقوم الساعة؛ ولذلك لا بد أن يؤيد دائماً بمعجزات وأن المعجزة معه.

إذن.. المنهج عين المعجزة، حالة مفقودة فى الرسالات كلها، ولكن معجزة محمد صلى الله عليه وسلم أمر موجود يمكن أن يشار إليه فى أى وقت من الأوقات، ونظرة واحدة فيما قال الله سبحانه وتعالى عن كونيات الحياة للعقل البشرى فى القرن العشرين، نجد أن القرآن يشير إليها؛ لأن العمر فى الرسالة القرآنية إلى أن تقوم الساعة، وما دام إلى أن تقوم الساعة فيظل معجزة حتى قيام هذه الساعة، ولا بد فى هذه الحالة أن يكون له عطاء يمثل إعجازا لكل عصر.

ولو جاء القرآن وأعطى إعجازه كله فى قرن مثلا من الزمان، ويستقبل القرن الآخر بلا إعجاز، وبذلك يجمد، ولكن لكى تبقى المعجزة، يجب أن يظل إعجاز القرآن الكريم إلى أن تقوم الساعة.

ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ ﴾ [فصلت: ٥٣]، هذه هى الآية الكونية، ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾، وهذه هى الآيات الطبية: ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ ؛ أى إن القرآن هو الحق، وبذلك يمكن لنا أن نقول إن آيات الكون ستأتى موافقة لآيات القرآن الكريم، حتى يتبين لهم أنه الحق، وكلمة ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا ﴾ توحى لنا أن الله سبحانه وتعالى سيعطينا آيات الكون وأسراره، ويمكن أن يعطيها للمؤمنين أو لغير المؤمنين، ولقد أعطى الله سبحانه وتعالى من آيات الكون للمؤمنين، فبرع المسلمون ووضعوا أساس العلم الحديث للعالم، ثم أعطى لغير المؤمنين، وذلك يفسر قوله سبحانه وتعالى: ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ ؛ أى إن الذين أعطاهم الله آيات الكون فى وقت من الأوقات، منكرون للقرآن كحق ؛ لأن المؤمن يفهم أن القرآن هو الحق ولا يحتاج إلى بيان، أما غير المؤمن فهو الذى يشك فى هذا الدين، وفى هذه الحالة يكشف له الله آية تبين له أنه الحق، والقرآن حين يتحدى.. يتحدى فى أمر معجز، وأنت لا تتحدى إنسانا كسيحاً فى المشى، ولا تتحدى إنسانا ضعيفا فى حمل الأثقال، هنا التحدى غير موجود.

ولكنك إذا أردت أن تتحدى.. فيجب أن يكون هذا التحدى فى شىء تنبغ فيه ؛ ولذلك جاء القرآن وتحدى العرب فى البلاغة والكلمة، وكان العرب متفوقين فيهما، وبذلك حين غلبهم القرآن.. كان التحدى فيه حجة، فقد جاء من نوع ما نبغوا فيه ؛ لأنه لو كان غير ذلك فمثلا لو جاء القرآن لقوم لا يحسنون البلاغة، وليس منهجهم بلاغة الكلمة، يكون حينئذ ليس معجزا، ولقد كان العرب يتفوقون بالأداء الطيب المعجز شعرا ونثرا وخطابة.

وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم.. كيف كان موقفه فى هذا كله، لقد عاش بينهم أربعين سنة، ولم ينظم شعرا، ولم يلق فيها خطابا، ولم يكن من نبغاء البلاغة، وما عرف عنه إلا كلام عادى قبل الرسالة، وليس له علاقة بفنون الشعر والخطابة، ولا هو متفوق فيها، ولا يقوم بما يقوم به فطاحل الشعر والأدب من تحد وقصائد إلى غير ذلك، والمعجزة هنا أننا حين نتحدى أولئك الذين نبغوا فى البلاغة، نتحداهم بإنسان لم يشتهر عنه أنه قال شيئاً من البلاغة، حتى نعرف أن هذا الذى يقول ليس من عنده، والمواهب الموجودة فى الشعر، تظهر فى سن مبكرة، من العشرين إلى الثلاثين.. وإن كانت هناك مواهب تظهر عند الصغر، ولكن النبوغ والعبقرية لا تأتيان إلا متأخراً فى سن الأربعين، وعندما يفاجأ العرب والعالم، بأن محمد بن عبد الله، الأمى الذى لم يعرف عنه أنه خطب أو قال شعرا، أو كان من رواد البلاغة، عندما يقول كلاما معجزا لأصحاب المواهب، نقول فى هذه الحالة، إن هذا ليس من عنده ؛ لأنه ليس من المعقول أن تكون عنده هذه العبقرية ثم يكتمها إلى سن الأربعين، ولكن المعقول أنها جاءت له من الله، ولذلك عندما يعرض القرآن للمتشككين يقول: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا

ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي ۖ ﴾ [يونس: ١٥].

وهكذا يقول رسول الله إنه ليس هو قائل هذا القرآن حتى يبدله، ثم تمضى الآية الكريمة: ﴿ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [يونس: ١٦].

هنا بلاغة وإعجاز فى الرد، فرسول الله يرفض أن ينسب الكمال لنفسه، والناس بطبعها تدعى الكمال لنفسها، وتنسب للنفس مالم تفعله، كل واحد منا يريد أن يثبت أنه عبقرى وأنه عالم، وأنه فى فنه مسيطر، وأنه لا يوجد من يفهم مشاكل الدنيا كلها إلا هو، وهو فى سبيل ذلك مستعد أن يسرق جهد غيره وينسبه إلى نفسه، أى إن الطبيعة البشرية تحاول أن تدعى الكمال ولو كذبا، ولكن هؤلاء الناس يريدون أن يعطوا الكمال لرسول الله، فينسبوا إليه أنه هو الذى قال هذا القرآن، وبدلا من أن ينساق رسول الله وراء هذا الكمال الذى يحاولون أن ينسبوه إليه، يوحى له الله بأن يرد عليهم ويقول ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ ۖ ﴾ ثم بعد ذلك يوحى الله إليه بالحقيقة أو الدليل يرد عليهم فيقول: ﴿ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أى إننى عشت معكم أربعين سنة قبل أن يوحى إلى، ولم أحاول حتى مجرد الدخول فى مزايدات البلاغة والشعر والخطابة، ولم يشتهر عنى ذلك، بل كنت أقول كلاما عاديا، فإذا كان هذا هو خلقى وطبعى كما تعرفون، فيجب أن تعرفوا أن الكلام المعجز لكم، والذى أتلوه عليكم هو وحى من الله سبحانه وتعالى وهذا كلامه، فإن كنت أحسن فن الكتابة والخطابة فربما ساوركم الشك، ولكننى كنت أقول كلاما عاديا، ولم أحاول أن أدخل معكم فى أى من مسابقات البلاغة والخطابة، ولا أن أعجزكم بقولى، فعندما يأتى القول المعجز يكون من الله سبحانه وتعالى.

ثم نجد شيئا هاما، رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلو قرآنا هو كلام الله، ويأتى بالحديث القدسى ثم يأتى بالحديث النبوى، كم لونا من الكلام.. ثلاثة، قرآن، وحديث قدسى، وحديث نبوى، والثلاثة مختلفة فى الأسلوب و البلاغة ؛ بحيث عندما يقرأ أحدهم قول القرآن يقول هذا قرآن، وإذا تلا أحد عليك الثانى يقول هذا حديث قدسى، وإذا تلا عليك الثالث تقول هذا حديث نبوى، وأتونى بأى عبقرى من عباقرة البلاغة، ليستطيع أن يكون له ثلاثة أساليب، لكل أسلوب طابع خاص مميز، لا يشترك فيه مع غيره.

لا يمكن أن يكون لشخص واحد ثلاث شخصيات أسلوبية، بل لكل واحد شخصية أسلوبية واحدة، وإذا حاول أن يخرج عنها فلابد أن تغلبه، وتكون هذه الفروق الهائلة بين الأساليب الثلاثة هى الدليل على أنها من عند الله، وبذلك يكون التشخيص الأسلوبى فيما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم، بالمنهج الذى هو القرآن، ثم الحديث القدسى،

ثم بالحديث النبوى، أكبر دليل على صدق الرسالة، والحق سبحانه وتعالى حين أرسل محمدا صلى الله عليه وسلم، فاجأ الناس بهذا البيان، فذهلوا، ولم يستطيعوا أن يردوا، كانوا يريدون تكذيب القرآن، ولكنهم لا يعرفون كيف يكذبونه. قالوا: هذا سحر، وكان الرد ببساطة أن المسحور ليست له إرادة مع الساحر؛ بحيث لا يستطيع أن يدفع المسحور عن نفسه؛ ولذلك نقول لهم ما دام محمد ساحرا وسحر الناس، فلماذا لم يسحركم أنتم حتى تؤمنوا به، لو كان ساحرا ما كنتم امتنعتم عليه، ولكان قد سحركم كما سَحر الآخرين، إنما كونكم حتى الآن تجلسون تردون وتجادلون، معناه أنه لم يسحركم، وهذا دليل على أنه ليس بساحر.

وقالوا مجنون، ونحن نقول إن عمل المجنون هو عمل بغير رتابة، بمعنى أنك لا تستطيع أن تتنبأ بما سيفعله إنسان فاقد العقل، بل إنه قد يكون جالساً معك يتحدث، وبعد دقيقة واحدة يضربك أو يؤذيك أو يقتلك، رتابة العقل هنا غير موجودة، وغير العاقل لا يمكن أن يقول ماذا سيفعل فى الدقيقة التالية.

ورسول الله صلى الله عليه وسلم كان على خلق عظيم، بشهادة الله سبحانه وتعالى ثم بشهادتكم أنتم، فقد كنتم تلقبونه بالأمين، وتأتمنونه على أموالكم وكل ما له قيمة، فكيف يمكن أن تأتمنوا إنساناً بلا عقل، إذن.. فأنتم تردون على أنفسكم.

ولا يمكن أن تأتى المواهب للإنسان فجأة، فأنت إذا أردت أن تتعلم شيئا، فلابد أن تبدأ بالتجربة والخطأ، فإذا أردت أن تقود سيارة مثلاً، فلابد أن يأتى إنسان يجيد قيادة السيارة ويعلمك فتخطئ وتصيب، ثم بعد ذلك تؤدى قيادة السيارة آليا، ورسول الله صلى الله عليه وسلم لم يعلمه أحد البلاغة، ولم يتدرب عليها، وكان خُلقه الحق والصدق، ولقبه الأمين، والسلوك هو انطباع النفس على خلق معين انطباعاً ييسر الحركة فيه بدون فكر، فيقال فلان خلقه الكرم.. أى إنه كريم حتى ولو كان يملك القليل، خلقه الصدق، أى إنه صادق حتى على نفسه، خلقه الأمانة؛ أى إنه أمين مهما بلغت قيمة ما تأتمنونه عليه، لا يطمع ولو كان فقيرا وأعطيته مبلغاً هائلا من المال، ورسول الله عرف بهذه الطباع كلها وعرف أنه على خلق عظيم.

ولقد تعب الكفار من أن كل ما حاربوا به هذا الدين، أظهر الله كذبه وبطلانه؛ ولذلك قالوا: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [الأنفال: ٣٢]. وكان من المنطق أن يقولوا إذا كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له، إنما هذا دليل على كراهيتهم للحق وتبنيهم للباطل، وقالوا: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]؛ لأنهم يريدون واحدا منهم، يأمنونه فى أن يكون معهم، ولو كان هذا ضد الحق، فالاعتراض هنا على أنه ليس من هؤلاء الأغنياء، الذين يمكن أن يتعاطفوا معه أو يمكن أن يتبعوه بدون أن يحسوا بأن شيئاً تغير،

وهكذا كان القرآن عندما يزداد المؤمنون إيماناً، أما الكفار فكانوا يحاولون أن يجدوا فيه منافذ أو مآخذ فلا يجدون، إلى أن انتهى الأمر وآمنوا.

والحق سبحانه حين يعطى رسله منهجا، والحق غيب، ويكون عطاؤه غيبا، ولذلك يحدد عطاء المنهج للرسل، ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا ﴾ [الشورى: ٥١]. طبيعة التكوين البشرى لا يمكن أن تستقبل من الله مباشرة، والوحى معناه الإعلام بشىء فى خفاء.

ولكى نبسّط هذا المعنى ؛ لو أنه جاءك ضيف ثقيل.. لا تريد أن تقابله، تتفق مع خادمك على إشارة معينة تعطيها له، فيعلم ويتخلص من هذا الضيف، ويكون فى هذه الحالة الإعلان قد تم بطريقة خفية لا يفهمها إلا من أراد أن يقول، ومن استقبل هذا القول بإشارة خفية، والوحى ما دام إعلاما بخفاء، فإنه يقتضى موحيا.. وموحى إليه، والموحى هو الله سبحانه وتعالى، يوحى للملائكة، ويوحى للنحل، ويوحى لغير أنبيائه، كلم موسى مثلا حتى أوحى أن يضرب موسى بعصاه البحر، والشياطين يوحون إلى أوليائهم، ولكن حين يطلق اسم الوحى كعلم، يكون إعلاماً من الله لرسوله، والله سبحانه وتعالى حين يكلم بشرا ويوحى إليه، لابد من ثلاث طرق: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ ﴾. كما كلم الله موسى عليه السلام، ﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا ﴾ كجبريل عليه السلام، وبذلك تكون كلمة الوحى الأولى مطلق إلهام، ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا ﴾ [الشورى: ٥١]. يعنى إلهاما، الله يقذف فى قلبه ما يشاء ويعلمه به، ولكن الخواطر فى القلب كثيرة، فكيف نعرف أن الله سبحانه وتعالى قد أوحى إلى هذه النفس، حين يوحى الله إلى بشر، نجد التسليم المطلق من ملكات النفس، ولا نجد أية معارضة، ولذلك فإنه أحيانا يأتى وحى من الله بأمر مناقض للعقل، ومع ذلك نقوم به ونتبعه، مثلاً أم موسى قال لها الله سبحانه تعالى: ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ ﴾ [القصص: ٧] ولو أنك ذهبت إلى أى إنسان يخاف على ابنه من خطر وقلت له ألقه فى البحر، لاتهمك بالجنون، ولم يتقبل كلامك، لأنك فى هذه الحالة تريد أن تنجى الابن من موت مظنون إلى موت محقق، فالابن إذا كان يتعرض للخطر، فإنك تأخذه وتخفيه فى مكان آخر، أو تهاجر به من دولة إلى أخرى، أو تقوم بإخفائه بحيث لا يظهر أبداً، ولكن أن تلقى طفلاً بلا حول ولا قوة فى البحر، فأنت تحكم عليه بموت محقق، لأنك تقذف به إلى أمواج وتيارات قد تقتله، فإذا نجا من تيارات البحر فهناك الطيور الجارحة، وهذا طفل صغير لا يستطيع الدفاع عن نفسه، فإذا نجا من الطيور كانت له الريح، تستطيع أن تقلب الصندوق الصغير الذى يرقد فيه، فإذا نجا من الريح كانت له الأمطار تنزل فتملأ الصندوق بالماء فيغرق، وهكذا إذا نجا من واحدة لقى مصرعه فى الثانية، فأنت فى هذه الحالة لن تنجيه، ولكنك توصله لموت محقق.

ولقد أراد الله سبحانه وتعالى أن يعلمنا من ذلك، أنه مهما حفت بنا الأخطار، فلا نحس أن هذا غضب من الله، فقد يكون فى هذا الطريق المغلق طريق نجاة، رسمه الله سبحانه وتعالى، فلا يدخل اليأس إلى نفوسنا أبدا، ولا نحس ولا نعتقد أننا انتهينا، ولكن الذى نريد أن نصل إليه . . هو أنه حين أوحى الله إلى أم موسى أن تلقيه فى البحر أو النهر، قامت أم موسى بوضع طفلها فى صندوق، وألقته فى الماء من دون أن يكون فى نفسها أى معارض يمنع هذا رغم أن العقل يرفضه، وهذه هى سمات الوحى فى مخاطبته لملكات البشر، الله سبحانه وتعالى حين أوحى إلى أم موسى أن تلقيه فى اليم، جعلها تسمع أمره إلى الماء، فليلقه اليم بالساحل، والأمر هنا قد صدر من الله سبحانه وتعالى للماء، وعرفت أم موسى أن اليم سيلقيه فى الساحل، فأرسلت أخته تتبعه لترى إلى أين سيذهب، وفى أى مكان سيلقيه الماء.

كيفية نزول الوحى.. دليل على صدق الرسالة

الرسالات السماوية نجد فيها الوحى للخاطر، والكلام من وراء حجاب، أو إرسال رسول من السماء هو جبريل عليه السلام، كل أعمال التكليف تصدر بالطرق الثلاثة، ولكن القرآن الكريم لم يأت إلا بطريق واحد، فلم يأت القرآن نفثاً فى الخاطر، ولم يأت القرآن الكريم كلاماً من وراء حجاب، وإنما جاء بواسطة إرسال رسول من الملائكة.

ويجىء الرسول بصلصلة الجرس تنبيها بأن الوحى قد جاء [1]، ثم بعد ذلك يسمعون حول رأس الرسول دويا، إذن.. هناك تغير كيماوى يحدث، ومن هنا لا يمكن أن يلتبس الأمر ما دام يتم بهذه الطريقة، وإرسال رسول، هو جبريل عليه السلام، بالوحى بجعل نفس محمد تطمئن على أن المسألة ليس فيها شك، بل إن كيماويات الجسد تتغير، فيقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان يجلس بجواره أحد الصحابة، وحينما جاءه الوحى لامست ركبته الشريفة الصحابى، فأحس بها كأنها جبل، كل هذه العمليات تتم دليلاً على أن الوحى قد جاء، ولذلك ثقل الوحى على رسول الله صلى الله عليه وسلم أول الأمر فقد كان يعانى إرهاقا شديدا ساعة الوحى، ثم بعد ذلك تأخر الوحى بعض الوقت، فاشتاق النبى إليه، وهذا الشوق كان يعطيه طاقة لتحمل الوحى، وهو المزج بين الطبيعة البشرية وطبيعة الوحى.

ولذلك قال تعالى: ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝ ﴾ [الشرح].

أى إننا خففنا عليك ما كان يحدث عند امتزاج الوحى بك، وقد يأتى الوحى بسورة ويقوم الصحابة بكتابتها، ثم يأتى رسول الله يقرؤها فى الصلاة، وتكون طبق ما نطق به، ائتونى بإنسان يقول كلاماً من عنده، وبعد سنوات يردد الكلام نفسه بالألفاظ نفسها، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأنه وحى يوحى ولأنه كلام الله، يظل فى قلبه طوال

---

(١) روى البخارى [٢]، ومسلم [٢٣٣٣/٨٧]، والترمذى [٣٦٣٤]، والنسائى فى المجتبى [٩٣٤] عن عائشة أم المؤمنين رضى الله تعالى عنها أن الحارث بن هشام رضى الله تعالى عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، كيف يأتيك الوحى؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس وهو أشده على فيفصم عنى، وقد وعيت عنه ما قال، وأحيانا يتمثل لى الملك فيكلمنى فأعى ما يقول». قالت عائشة رضى الله تعالى عنها: «ولقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه، وإن جبينه ليتفصد عرقاً».

حياته، مصداقاً لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝ ﴾ [النجم].

يأتى بعض الناس فى محاولة للتشكيك فى القرآن الكريم، ويقول، الإنسان قد استطاع الوصول إلى القمر، وبعد ذلك نفذ من أقطار السماوات، وهذا الكلام لا يتفق مع العقل، ولا المنطق، فالمجموعة الشمسية كلها هى ضاحية من ضواحى الأرض، وما بين الشمس أو المجموعة والأرض ٨ دقائق ضوئية، ولكن هناك من الكواكب، بينى وبينه مليون سنة ضوئية، وكل هذه دون السماء الدنيا.

وهكذا يظهر أن معنى قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٧]؛ أى: إنه فضاء ولا نهاية.

وإذا حسبنا الثانية الضوئية نجد أنها ٣٠٠ ألف كيلو متر، فإذا ضربنا ٣٠٠ ألف × ٦٠ وهى عدد الثوانى فى الدقيقة، ثم نضربها فى ٦٠ وهى عدد الدقائق فى الساعة الواحدة، ثم فى ٢٤ وهى عدد الساعات فى اليوم ثم فى ٣٦٥ وهى عدد الأيام فى السنة، ثم ضربنا كل هذا فى مليون وهو عدد السنوات الضوئية بيننا وبين بعض الكواكب، تحس بالبعد اللانهائى فى السماء وحدها، وهو بعد تعجز عن إدراكه العقول.

فعندما يأتى الله سبحانه وتعالى ويقول: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴾ [الرحمن: ٣٣].

يقول بعض الناس إن هذا هو سلطان العلم الذى استطاع أن يقودنا إلى القمر ولست أدرى ما هى العلاقة بين السماء والقمر.

والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾، والقمر ضاحية من ضواحى الأرض، ولا دخل له بالسماء، ولا يحتاج إلى سلطان.

ولو كان الله سبحانه وتعالى، يقصد سلطان العلم لما قال بعدها: ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴾ [الرحمن: ٣٥].

ولكن لماذا جاء الله فى هذه السورة بكلمة سلطان، لو أن كلمة سلطان لم ترد فى القرآن الكريم، لقلنا إن حديث الإسراء والمعراج ربما كان حديثا فقط، لماذا؟ لأن النبى صلى الله عليه وسلم صعد إلى السماء. والقرآن يقول: ﴿ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ﴾، لا تنفذون - ثم يسكت - ولا يقول: إلا بسلطان، وفى هذه الحالة يكون قد حكم الله.. لا أحد ينفذ من أقطار السماوات والأرض، وكلمة بسلطان معناها: من الله سبحانه وتعالى، وقد تكون هذه الآية تأكيدا لصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الإسراء والمعراج، ولو لم تأت لأثارت تساؤلات كثيرة.

إذن.. هذه الآية لا علاقة لها بصعود الإنسان إلى القمر، لأن القمر ليست له علاقة

بحكاية السماء، أين القمر من السماء؟ أين القمر من الكواكب التى تفصلها عنا ملايين السنين الضوئية، التى لا يستطيع رقم أن يصل إلى حسابها؟ فإذا قال إنسان إنه سيرسل بشرا إلى السماء؛ نقول له: إن عمر هذا الإنسان سينتهى قبل أن يصعد إلى السماء؛ ذلك أنه محتاج قبل أن يجتاز السماء الدنيا إلى ملايين السنين، ومن هنا يجب أن نلاحظ أن هناك فرقا بين الحقيقة وبين الظل، وبين جهل، وبين وهم، ولا نربط القرآن إلا بالحقيقة العلمية الثابتة، لأننا لو ربطناه بغير ذلك، لتذبذب القرآن.

وحكاية ربط النظريات العلمية بالقرآن محتاجة إلى وقفة، ذلك أن عددا كبيرا من النظريات العلمية يثبت خطؤها بعد فترة من الوقت، ولذلك لا يجب أن نربط القرآن إلا بالعلم الذى عليه دليل الحقيقة الثابتة، أما ما عدا ذلك من جهل وتقليد وشك وظن، فإياك أن تربط القرآن بواحدة من هذه؛ لأنك فى هذه الحالة تسىء إلى كتاب الله بنية حسنة، وأنت تربطه بآيات الكون.

والذى أريد أن أقوله، إن القرآن هو المهيمن، وهو الصادق، ولو جاءت نظرية علمية تناقض القرآن الكريم، فإننا نؤمن أن القرآن على حق، وهذه النظرية العلمية باطلة كاذبة، لماذا؟ لأن القرآن كلام الله، والنظريات العلمية هى نظريات البشر، وكلمات الله أصدق إذا ناقضت قول بشر، ولذلك فإن القرآن مهيمن، كلامه لاشك فيه، فكلام الله يقين، لاعيب أن تتناقض نظرية مع القرآن الكريم؛ لأن التناقض لا يحدث هنا فى أمر تكليفى بأفعل ولا تفعل، وهو الأساس فى كتاب الله، فنحن بعد أن عرفنا أن الأرض كرة، والأرض تدور حول نفسها، ما الذى زاد التكليف؟ لا شىء، والذى لم يعرف هذه الحقيقة من الأميين، أو الذين لم يحصلوا العلم، ما الذى حدث لهم فى أمور حياتهم اليومية وعلاقتهم بالله، لا شىء، إذن فهو علم لا ينفع، وجهل لا يضر، إذن فالأمور المقصورة فى كونيات الكون، والكونيات التى تعرض لها القرآن، دعها حتى تنضج النضج الذى يمكنك بعد ذلك عن يقين من أن تربط واحدة منها بالأخرى.

وهذا مصداقا للآية الكريمة: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

ولنضرب لذلك مثلا، كنا ندرس ونحن فى المدرسة أن الأرض كروية، وكنا ندرس ذلك بأدلة يرويها العلم، ولكن العلم الآن ليس محتاجا إلى أدلة، لأن الإنسان رأى الأرض وهى كرة، وليس مع العين دليل آخر، ثم عرفنا أن الغلاف حول الأرض، وأنه يتبع الأرض ويدور بها، إذن الغلاف الجوى جزء من الأرض يتبعها ويدور معها، والذى يطير فى الغلاف الجوى بالطائرة، لا نقول إنه خرج من الأرض، بل إنه يطير مع الأرض..

وكنا نقرأ قديماً قول الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١١].

فنأخذها على أن الأرض ظرف للسير، ولكن بعد أن اكتشف أن الغلاف الجوى

جزء من الأرض، اتضح لنا أننا لا نمشى فوق الأرض أو على الأرض، ولكننا نمشى فى الأرض، أى بين الغلاف الجوى والقشرة الأرضية، وإلا لوكنا نمشى على الأرض لوجب أن نمشى فوق الغلاف الجوى، ولو كنا أجهدنا الأسلوب لنفهم فى الماضى، ما عرفنا المعنى، ولكن الحقيقة الكونية التى كشفها الله لعباده، قربت لنا المعنى، وجعلتنا أكثر فهماً له.

فعندما يقول الله: ﴿ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾، كان يقصد أن الغلاف الجوى جزء من الأرض لا ينفصل عنها، وأننى حينما أسير أسير فوق القشرة الأرضية وتحت الغلاف الجوى، إذن.. فأنا أسير فى الأرض، وليس على الأرض.

ويقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [النمل: ٨٨].

كان بعض الناس يفسر هذه الآية على أساس أنها الآخرة، ولكن ليس فى الآخرة حسبان بل فى الآخرة يقين، أما الحسبان فهو فى الدنيا؛ لأن هناك فى حياتنا الدنيا أشياء أخفيت عنا، وأشياء لا نراها.

وقول الله تعالى: ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾؛ يدل على أن القضية غريبة عن العقل، لأنك حين تقرأ الآية وتستغربها، ولا تستطيع أن تتقبلها عقليا، يقول لك الله سبحانه وتعالى إن هذا من صنع الله، حينئذ أصبحت حقيقة كونية، وعليها دليل وهو قول الله سبحانه وتعالى، وحينما يقول الله، فإننا ننسب الفعل إلى الفاعل، حين نتحدث ونقول شيئاً لابد أن أنسبه لقدرتك، حتى أعرف هل تستطيع أن تقوم به أم لا، فإذا كنت ضعيفاً وقلت إنك هزمت بطل العالم فى رفع الأثقال، حينئذ أستغرب هذه الحقيقة، وأشك فيها لأن قدرتك لا تتناسب مع الفعل، أما إذا قال الله سبحانه وتعالى، فقدرته تتناسب مع كل شىء فى الدنيا، ولذلك فإذا قال الله فهو يقين، لأنه لا قادر غيره، ولا قوى سواه، وتلاحظ هنا أن الله تبارك وتعالى قد قال: ﴿ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾، كون الجبال التى نحسبها جامدة تمر دليل على أن الأرض تدور، ولا يمكن أن يحدث المرور هنا إلا إذا كانت الأرض تدور حول نفسها، ولكن لماذا قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾، لأن السحاب ليس مروره ذاتيا، أى إنه لا يملك قوة ذاتية للحركة وإنما تدفعه الريح، فكأن الجبال لا تملك هى الأخرى قوة ذاتية للحركة، وما دامت تمر مر السحاب، فإنما هناك قوة تدفعها وهى تبعيتها لحركة الأرض، وعندما نسمع فى القرآن كلمة: ﴿ تَحْسَبُهَا ﴾، نعلم أن هذا يخص أمور الدنيا، فلا حسبان فى الآخرة وإنما يقين، وإنما الحسبان فى الدنيا لأنها هى التى فيها أشياء مخفاة عنا ولا نراها، وبعض الناس يتساءل إذا كانت هذه الجبال وهى عالية تمر هذا المرور، أو تتبع الأرض فى حركتها فلابد أن تنفصل عن الأرض، ولكن الله سبحانه وتعالى خلق توازناً فى الأرض، فالبروز العالى يتبعه عمق كبير، وهناك

تناسب فى الكتل، وهذا التناسب هو الذى يحفظ توازن الأرض، وأنت إذا أخذت قطعة من الأرض إلى مركز ما، وأخذت قطعة فى القطاع الثانى لابد أن تكون متساوية فى الوزن، وإلا، لو أقمت عمارة فى هذه الحالة، فإنها تقع أو تسقط، ولكنك وأنت تقيم عمارة فأنت تأخذ الثقل وهو الطوب ولوازم البناء من مكان آخر، وهنا فأنت لم تخل بالتوازن، وكل لفتة فى القرآن الكريم إلى آيات الكون، لا يجب أن تجعلنا متسرعين فى تفسير هذه الآيات قبل أن يظهرها الله سبحانه وتعالى، وكل سر فى الكون له ميلاد، ومهما اجتهد الإنسان فإنه لا يكشف له السر إلا إذا جاءت لحظة ميلاده، ولذلك ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم الآيات الكونية فى القرآن الكريم حتى يظهرها الله للعقول، وروى فى بعض الكتب: «دعوا هذه الأشياء حتى يأتى إذن الله لعقول أن تجدها».

على أية حال، فإن هذه الأشياء لا تدخل فى المنهج، ومن هنا فإنها لا تؤثر على حياة الإنسان، ولا على انتفاعه بالظواهر الكونية، فالشمس ينتفع بها من يعرف حقيقتها ومن لا يعرف، وكذلك كل المظاهر الكونية، وهنا يكون التعب فى علم لا ينفع وجهل لا يضر، والقرآن كلام الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وقد حمل منهج البشرية ليحمى حركة الإنسان الاختيارية، وما دام الإنسان يلتزم فى حياته بالقرآن الكريم، فإنه يستديم الجمال فى الكون، ويظل الكون جميلا فيما لك فيه من خيار، وجماله ودقته فى الأشياء التى لا خيار لك فيها.

ولقد قلنا إن هذا الكون ليس فيه عمل اختيارى كامل، أو متقن كل الاتقان، وكلنا نقول حينما نرى ما يحدث فى الكون إن الكمال لله وحده، وفساد الكون يأتى من أشياء داخل فيها اختيار الإنسان بدون منهج الله، فهذه الأشياء هى التى تفسد الكون، ولو دخلنا فى الأمور الاختيارية بمنهج الله لاستقام جمال الكون.

وأحب أن أضرب مثلاً على ذلك؛ لو ذهبت إلى غابة أو روضة أو حديقة لم يدخلها الإنسان لوجدت فيها الجمال، ولو ذهبت إلى حديقة ثانية دخلها الإنسان، تجد فيها القذارة والتشويه للجمال، لماذا؟ فمنهج الله جاء ليعصم الحياة فى حركة الإنسان الاختيارية، وإذا ظل الجمال فى الكون موجودا رضى الموجود عن الوجود، واستقامت حركته وظلله الأمن والسعادة و الرفاهية، إذن منهج الله فى القرآن، إنما جاء ليهدى للتى هى أقوم، لذلك فإن القرآن نزل فى وقت اندثرت فيه الرسالات، وزادت فى الشعوب بأكملها العلل والداءات.

ولذلك قال الله سبحانه وتعالى عن القرآن إنه شفاء ورحمة: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢].

إذا أردنا أن نعرف لماذا قدم الله سبحانه وتعالى الشفاء على الرحمة، ولماذا لم يقل

الله سبحانه وتعالى فيه رحمة وشفاء، والرحمة هى التى تمنع كل داء فى الكون يأتى منه فساد المجتمع، الرحمة تستأصل كل ما لا نحبه فى الحياة، أما الشفاء فهو أن يكون الداء موجودا فعلاً ثم بعد ذلك تأتى العافية، والذى حدث عندما أنزل القرآن أن الداءات كانت موجودة فى الكون من حروب وقتل وتشريد، واستعباد وتفرقة بين الناس، يأكل القوى حق الضعيف، عذاب فى الأرض، كان هذا هو حال المجتمع البشرى عندما جاء القرآن، ولذلك نزلت الرسالة لتشفى البشرية من الشقاء الذى تعيش فيه، فإذا شفيت البشرية من هذا واستقر منهج الله فى الأرض، وحكم حركة الحياة، تأتى بعد ذلك الرحمة، لماذا؟ لأن الأصل فى الأشياء أنك تمنع الشر الموجود أولا، فإذا منعت هذا الشر والتجأت إلى منهج الله، ابتدأت الرحمة تأتى لتمنع الشقاء عن الكون، فإن حدثت غفلة وابتعد الناس عن المنهج جاءت داءات جديدة، فإذا عدت إلى القرآن، وإلى منهج الله، جاء الشفاء، ثم جاءت الرحمة.

القرآن.. فيه الحل لكل مشاكل البشرية

داء البشرية الأصيل هو الغفلة «وتغيير المنهج»، ذلك لأن الإنسان يتغاضى عن كثير من منهج الله، فأنت إذا مرض ابنك، أسرعت به إلى الطبيب تريد له العلاج، وإذا لم تجد طبيبا أسرعت بطفلك إلى طبيب آخر، وهكذا تنتقل من طبيب إلى طبيب تتعجل الشفاء لطفلك، ولكن إذا ترك طفلك الصلاة، فإنك نادرا ما تؤاخذه على ذلك، فأنت تهتم بالابن اهتماما بالغا فى أن توفر له مستقبله الدنيوى، وفى خلال هذا تنسى تماماً «المنهج».

بل إنك، فى كثير من الأحيان، تقاوم منهج الله ؛ لأنه يحد من حركتك فى الحياة التى تعتقد أنك لو تمتعت بالحركة فيها حسب هواك وما تريد، لفسد العالم كله.

والمنهج فى الإسلام موصى به من الله سبحانه وتعالى، وهو محفوظ منه، أى إن الله هو الذى يحفظه، والقرآن معجزة، ومنهج الإعجاز فيه هو أنه ليس للبشر فيه مكان، فهو كلام الله محفوظ من الله سبحانه وتعالى إلى يوم القيامة، والإعجاز فيه أنه يعطى عطاء لكل جيل يختلف عن الجيل الذى قبله، والإعجاز فيه أنه صالح لكل زمان ومكان، والإعجاز فيه أنه يداوى أمراض المجتمعات أينما كانت، وأنه كلام الله، يحمل العلاج لكل الداءات، ما معنى هذا؟ معناه أن مجرد القول بهذا الكلام يفسر لنا معجزة كبيرة فى القرآن الكريم، فالرسالات قد نزلت تعالج داءات المجتمع، كل رسالة نزلت إلى قوم تعالج الداءات أو الانحرافات الموجودة فيه.

وكان المجتمع البشرى إذا انحرف أرسل الله سبحانه وتعالى رسولا إلى هذا المجتمع، ليعيد منهج الله ويعلى راية الحق ويعالج الداء، حتى إنه كان هناك أكثر من رسول فى وقت واحد، مثل إبراهيم ولوط، ولكن القرآن جاء يعالج المشاكل برمتها، لماذا؟ لأن الله سبحانه وتعالى كان فى علمه أن الداءات ستتوحد، ولذلك كانت وحدة الحل ضرورة، ولقد شهدنا ذلك يتحقق، فما يحدث الآن فى أى مكان من بلاد الدنيا، نجده بعد دقائق قد عرفه العالم أجمع، وأنت تستطيع أن تركب الطائرة، وخلال ساعة أو ساعتين تكون قد نقلتك من قارة إلى قارة أخرى، المسافات اقتربت والدنيا كلها أصبحت تسمع بعضها البعض، وكأنها تعيش فى بقعة واحدة، ولم تعد هناك انعزالات فى الكون، بل أصبح الكون كله يعيش قريبا متقاربا، وبذلك توحدت الداءات التى يشكو منها العالم، ولو نظرت إلى أى دولة من دول العالم، غنية أو فقيرة، لوجدتها تشارك باقى الدول فى المشكلة نفسها، البطالة، ارتفاع الأسعار، وقلة الأجور، ومشاكل الإنتاج.

ولعل أبرز دليل على وحدة الداءات فى المجتمع، أن الدولة المتقدمة ترسل

خبراءها إلى الدول المختلفة ؛ لتعالج المشاكل فيها ولو أن هذه المشاكل أو الداءات مختلفة، لما استطاع خبراء الدول المتقدمة أن يعالجوا مشاكل الشعوب الأخرى، ولكنها واحدة، دول تغلبت عليها، ودول أخرى لم تستطع التغلب، وهذا إعجاز القرآن الكريم، بأنه تنبأ بوحدة الداءات والمشاكل فى العالم، فجاء بوحدة الحل لهذا كله فى نظام الحياة الذى قدمه الله سبحانه وتعالى رحمة للعالمين.

وعندما جاء الوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكلام الله، كان هناك قضايا قضى فيها الرسول، وجاء حكم الله موافقا لذلك مرة. . ومعدلا له مرة ؛ ولذلك قال المتشككون فى منهج رسول الله: إن تصحيح الله لأحكام صدرت من رسوله صلى الله عليه وسلم، دليل على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد يخطئ، نقول لهم إن ذلك جزاف من القول، فما هو الخطأ؟ وما هو الصواب؟ الخطأ هو أن توجد قاعدة مسبقة ثم يخالفها المخطئ، فيأتى من وضع القاعدة فيصويها له، نحن نعلم الطفل أن الفاعل مرفوع. فيأتى هو ولا يرفع الفاعل مع أنك نبهته إلى ذلك مسبقا، وفى هذه الحالة تصوب له أنت خطأه، لماذا؟ لأنه خالف القاعدة الصحيحة التى أعطيت، ولكن إذا لم يكن هناك قاعدة ويأتى التصويب بعد الحدث، فلا يقال إنه أخطأ، لأن الذى أخطأ لابد أن يعرف ما هو الصواب، ولم يكن هناك حكم من الله خالفه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم رده الله عن هذه المخالفة، ولكن كل الأمور كان يتم الحكم فيها ببشرية الرسول، ثم يأتى قول الله بحكم الله، وحكم البشر فى قضيةلا يمكن أن يكون مساويا لحكم الله، فحين يأتى كلام الله لا يقال إن الله صوَّب، وإنما يقال إن الله قد هداه إلى ما هو أصوب.

رسول الله كان عنده عبد اسمه زيد بن حارثة، وهبته له زوجته خديجة، ولما علم أهل زيد، وكان قد خُطِف منهم وبيع فى مكة - لما علموا بوجوده فى مكة - جاءوا إليه، وعندما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم بمقدم أهل زيد، ترك لزيد أن يختار ؛ إما أن يبقى معه وإما أن يعود مع أبويه، فقال زيد: ما كنت لأختار على رسول الله أحداً، وهناك أراد الرسول أن يكرم الإنسان الذى اختاره فتبناه، فكان له أبا وسُمِّى زيد بن محمد وكانت عادة التبنى موجودة عند العرب.

ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يبطل التبنى، فهدى رسوله إلى ذلك، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [الأحزاب: ٥].

إذن. . عندما وقعت الواقعة لم يكن هناك حكم من الله خولف، ولكن التصرف كان يتمشى مع الأحداث، ثم جاء حكم الله الذى نزل عليه الجميع، وانظروا إلى دقة الأداء القرآنى فى قوله سبحانه وتعالى: ﴿ هُوَ أَقْسَطُ ﴾، أى: إنه أفضل.

ومعنى ذلك، أنك أنت يا محمد فعلت ذلك، ولكنى سأدلك على ما هو أقسط عندى، لأنك قريب منى، ورسولى إلى البشر أجمعين ؛ ولذلك فلابد أن أهديك إلى أقوم

طريق، وأعلمك إلى ما يقربك منى، إذا أردت أن تعرف فاعلم أنه أقسط عند الله أن تدعو زيداً إلى أبيه، أى زيد بن حارثة، ذلك هو الأقرب إلى الله سبحانه وتعالى، وحين تنزل الآية، يتخذ الرسول الكريم على الفور طريق القربى إلى الله سبحانه وتعالى ويبطل التبنى.

ويأتى بعض الناس ليقول هناك تناقض بين هذه الواقعة وبين قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ [النجم: ٣]. ونقول لكل من يثير هذا الكلام إنك لم تفهم معنى الآية الكريمة: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾، معناها أنه لا ينطق عن هوى فى نفسه، فإذا كان صديقاً لأحد، أو قريباً لفرد، أو يحب إنساناً فلا يجعله هذا الهوى يبتعد عن الحق أو يقضى بغيره، رسول الله حين ينزل إليه الحق، لا ينطق عن هوى أبداً مهما كان ذلك الذى تهواه نفسه، فهو دائماً مع الحق؛ ولذلك كان الناس إذا اختلفوا حول أى قضية، كان من له الحق يطلب أن يحكموا فيها رسول الله، ومن كان عليه الحق هرب من حكم رسول الله، ذلك أنهم يعلمون جميعا أن رسول الله مع الحق، ولا ينطق عن هوى، وهكذا كانت كل لفتات الله سبحانه وتعالى إلى رسوله، إنما هى لفتات لزيادة القربى، ولفتات حتى لا يحمل رسول الله نفسه فوق طاقته.

رسول الله فى قضية ابن أم مكتوم نزلت فيها الآية الكريمة: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢﴾ [عبس].

ما الذى اختاره الرسول، اختار الأمر السهل أم الأمر الصعب؟ لقد ترك الرسول السهل إلى الصعب، وبدلاً من أن يتخذ الطريق السهل ذهب يتعب نفسه مع قادة كفار قريش، وهنا يطالبه الله بأن يلتجئ إلى الأسهل، لأنه يحب رسوله، والرسول يحب الله ويريد أن يتحمل فى سبيله مشقة هائلة.

وهكذا لا بد أن نعرف مقام محمد عند ربه، فالله سبحانه وتعالى يريد لنبيه أقرب مقام.

وفى الوقت نفسه تأتى رحمة الله أن تحمل رسوله مالا يطيق: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ٢].

فقد ألزم محمد نفسه بشىء أكثر مما يجب عليه، وهذا من منطلق الأمانة فى التبليغ والأداء، والرسول صلى الله عليه وسلم حين يبلغ هذه الآيات كلها ولا يكتم منها شيئاً فهى أمانة البلاغ، والقرآن قد جاء إلينا كما قاله الله تعالى، الله تكلم، وجبريل نقل كلام الله إلى محمد، ومحمد نقله إلى الصحابة والدنيا كلها، والقرآن كما قلنا الكون يفسره.

وهناك اتجاهان الآن، اتجاه يحاول أن يلصق العلم بالقرآن، واتجاه آخر يرفض أن يقترن العلم بالقرآن؛ لأن النظرية العلمية قد تكون غير صحيحة، والمنهج الأول خاطئ، والمنهج الثانى خاطئ، لماذا؟ لأن هناك فى الكون حقائق علمية ونظريات علمية، وأن تربط القرآن بنظريات علمية خطأ؛ لأن النظرية العلمية قد تخطئ، ولكن هناك الحقائق

العلمية، وأن تبتعد بالقرآن عن النظريات العلمية تماما قد يجعلك لا تلحظ المعجزات القرآنية وآيات الله في الكون، ولكن الذي يحدث أن النظريات العلمية إما جهل، وهو أن تؤكد حقيقة علمية غير صحيحة، وإما تقليد أمام نظرية علمية واقعة وليس عليها دليل، وإما علم حقيقي إذا كانت النظرية واقعا علميا وعليها دليل مجزوم به.

ولكن هل يصطدم القرآن بالعلم؟ الحقيقة لا. القرآن لا يمكن أن يصطدم بالعلم، لأن الله هو الذي خلق الكون، وأنه سبحانه وتعالى هو الذي أنزل القرآن وهذا كلامه، وما دام القائل هو الفاعل، فلا يمكن للعلم أن يصطدم مع القرآن أبداً، وإنما القرآن يصطدم مع الجهل، مع الشك، مع الظن، مع الوهم ومع التقليد، أما ما ثبت أنه علم، فلا يمكن أن يصطدم مع القرآن الكريم؛ لأنه كما قلت، قائل القرآن هو خالق الكون، وما دام القائل هو الفاعل فلا توجد حقيقة كونية تتناقض مع حقيقة قرآنية، وهو ما يؤكده كل علماء العالم.

لكن ما الذي يحدث؟ ومتى ينشأ التناقض؟ حقيقة علمية، وحقيقة قرآنية لا تناقض، إنما التناقض ينشأ من أن هناك حقيقة كونية تحتوي على نسبة من الخطأ، أو حقيقة قرآنية يساء فهمها، فتصطدم بحقيقة كونية، مثلا بعض الناس يقول إن القرآن أكد عدم كروية الأرض فإذا سألتهم من الذي أعطاكم هذه الحقيقة القرآنية، قالوا الآية الكريمة: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾ [ق: ٧]. أي: بسطناها، أي إن الأرض مبسوطة بنص القرآن الكريم.

نقول لهم: هذا الفهم خاطئ، الحقيقة قرآنية، فقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾ يحمل الدليل الإعجازي على كروية الأرض، ويستبعد أن تكون الأرض مسطحة، بل إن الآية الكريمة: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾، لا تصح إلا إذا كانت الأرض كروية، كيف؟ القرآن الكريم قال: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾ أي بسطناها، ولكن هل قال القرآن الكريم أو حدد أي تلك التي مددناها أو بسطناها؟ لا، لم يحدد، لكنه ذكر لفظ الأرض على إطلاقها، أي إنك إذا نزلت على أي أرض على سطح الكرة الأرضية ترى الأرض مبسوطة أمامك، سواء كان المكان الذي نزلت فيه، في خط الاستواء أو في القطب الشمالي أو الجنوبي، إذن الأرض ممدودة حيثما ذهبت، وأينما كنت، فإذا كانت الأرض مربعة أو مسدسة أو مثلثة أو على أي شكل هندسي آخر يتنافى مع الحقيقة القرآنية في قول الله سبحانه وتعالى ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾، أي بسطناها، لأنك ستصل فيها إلى مكان تكون فيه الأرض ممدودة، لا بد أن تكون الأرض كروية.

ولذلك عندما يقولون إن كروية الأرض تصطدم مع حقيقة قرآنية، نقول إن الصدام لم يحدث بين حقيقة علمية وحقيقة قرآنية، بل الصدام الذي حدث هو بين فهمك أنت لحقيقة قرآنية وإعطائها غير معناها، فأنت قد أخذت الحقيقة القرآنية، بالعكس.. فاصطدمت مع الحقيقة الكونية، بينما لو دققنا في المعنى، لوجدنا أن الحقيقة القرآنية

والحقيقة الكونية لا اصطدام بينهما.. ولذلك فليطمئن الغيورون على دين الله، الذين لا يريدون أن يربطوا القرآن بالمسائل العلمية، نقول لهم إذا أردتم أن تربطوا القرآن فيجب أن يكون ذلك حقيقة قرآنية بحقيقة كونية.. وحينئذ لا تخف أبدا، لأن حقائق الكون لا تتعارض مع الحقائق القرآنية.

مثل آخر، بعض الناس يأتي ويقول لك تفسيراً لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ ﴾ [لقمان: ٣٤].. يقولون إن بعض الأطباء أصبحوا يأخذون عينات، ويعرفون هل جنين الأم ذكر أم أنثى قبل الوضع بفترة قليلة، نقول لهم: أولاً ما يذكر عند الأطباء ليس حقيقة كونية، لأن هناك نسبة في الخطأ تحدث، وتقل أو تزيد، ويضاف إلى ذلك أن الاختيار هنا فيه نسبة ٥٠ ٪ خطأ و ٥٠ ٪ صواب، أي إن هناك احتمالين لا ثالث لهما، إمّا أن يكون ذكراً وإما أن يكون أنثى، ومن هنا يكون التمييز سهلاً، بل إننا نرى عدداً من النساء ينظرون إلى امرأة ويقلن لها ستأتين بولد، أو ستلدين أنثى، وتضع المرأة فعلا حسب النبوءة، فهل هؤلاء السيدات اللاتي لم يقرأن سطراً واحداً في حياتهن في الطب أو في غير الطب، يعلمن ما في الأرحام؟ أم أن المسألة مجرد تخمين، لو أن الاختيار بين بدائل عديدة ثلاثين أو أربعين مثلاً، وجاء العلم بالنوع الحقيقي من بين الثلاثين احتمالاً لقربت المسألة من أن تكون حقيقة علمية.. ولكن البدائل هنا واحد فقط.

إن كلمة: ﴿ مَا ﴾ تعني أكثر من ذلك بكثير، فهي تعني هل هو ذكر أم أنثى؟ شقي أم سعيد؟ أبيض أم أسود؟ ما هو عمره وما هو رزقه؟ وما هو نصيبه في الحياة، وماذا سيحدث له منذ لحظة دخوله في الحياة إلى لحظة خروجه منها، ولعل القرآن الكريم يفسر لنا شيئا من مدلول كلمة ما، في قوله سبحانه وتعالى في سورة مريم: ﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ [مريم: ٧]، وقوله تعالى: ﴿ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ۝ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ۝ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ۝ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ۝ ﴾ [مريم].

وقول الحق سبحانه وتعالى في سورة آل عمران: ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [آل عمران: ٣٩].

بماذا أنبأ الله زكريا؟ أنبأه أن امرأته وهي عاقر ستلد، وأنها ستلد غلاما، سيطلق عليه اسم يحيى، وهو اسم لم يطلق على أحد من قبل، وأن هذا الغلام سيكون سيدا ونبيا من الصالحين، وأنه سيأخذ الحكم صبيا، وسيكون تقيا وبارا بوالديه، ولن يكون جبارا، وأن السلام سيكون عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا، كل هذا أخبر الله به زكريا، بالغلام قبل أن يوجد في الأم أو قبل أن يتم الحمل، فزكريا كان يصلي في المحراب، ويدعو الله بأن يرزقه بولد، حين أخبرته الملائكة، لم ينتظر حتى يتم الحمل، ولا هو اقتصر على ذكر أو أنثى.. ولكنه تناول أشياء كثيرة ومتعددة ستحدث بعد ميلاد الطفل

بسنوات عديدة، وعرفها زكريا، فمن ذا الذى قال إن كلمة ﴿مَا﴾ تعنى ذكرا أو أنثى فقط، لقد روى الله سبحانه وتعالى لزكريا مجمل الأحداث الهامة فى حياة ابنه يحيى، قبل أن تحمل أمه فيه، فإذا قلت إن كلمة ﴿مَا﴾ تعنى ذكرا أو أنثى، نقول لك من الخطأ أن تقصر معنى القرآن على شىء، وأن تربط القرآن بكونيات لم تثبت لأن فيها نسبة خطأ، كما هو الحال بالنسبة للذكر أو الأنثى، ولعل هذا يذكرنا بما حدث فى أول العصر الحديث حين ربط بعض العلماء بين الكواكب السيارة السبع والسماوات السبع، ثم مرت السنوات واكتشف كوكب ثامن، وكأن هذا الذى حدث محاولة لربط ظن كونى بحقيقة قرآنية، والعلماء فى ذلك الوقت فرحوا عندما وجدوا الكوكب الثامن، ونسوا أن كل هذا فى السماء الدنيا، ثم بعد ذلك زاد الكشف حتى أصبح عدد الكواكب أحد عشر، وأن بينى وبين الشمس ٨ دقائق ضوئية، وبينى وبين عدد من الكواكب وهو ما سبق أن تحدثنا عنه، فإذا جاء أحد يحاول أن يربط نزول الإنسان على القمر كحقيقة علمية بالآية القرآنية ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾، ويقولون إن هذا هو سلطان العلم، نقول إنك قد جهلت حقيقة قرآنية، على أن الله سبحانه وتعالى قد تحدى الجن والإنس أن ينفذوا من أقطار السماوات والأرض، والقمر ضاحية من الأرض، والمجموعة الشمسية كلها دون السماء الدنيا، والإنسان فى كثير من الأحيان يغتر بقوته، ويحاول أن يجعل من هذه القوة ميزانا للكون كله، مع أن الله سبحانه وتعالى قد جعل القوة البشرية محدودة. . والقدرة البشرية على الاختيار مركزة فى محدود، فالجسد الإنسانى مثلا خارج قدرة الاختيار، كيف أنت، وما هو شكلك؟ طويل أم قصير؟ كيف تنمو؟ كل هذا خارج الاختيار.

قلبك يدق سواء أردت أم لم ترد ومعدتك لا تنتظر أمرا منك حتى تقوم بهضم الطعام، وأنفك ورئتاك لا تأخذان إذنا منك لتستنشق الهواء، تبقى بعد ذلك الحركة الاختيارية، وهى تسير مع جزء محدود من حركة الحياة، هناك أشياء تركك الله سبحانه وتعالى تختارها بدون أن يقيدك، فأنت حر مثلاً بين أصناف متعددة من الطعام، تختار منها ما تشاء، بدون أن يكون هناك عقاب عليك، وأنت تستطيع أن تذهب لتعيش فى أى بقعة من بقاع الأرض، بدون أن يحاسبك الله لماذا تركت هذا البلد وعشت فى تلك، ولكن الأمر الاختيارى الذى عليه الحساب هو فى التكليف، فقد أعطاك الله القدرة أن تفعل ولا تفعل ففرض عليك الصلاة، وأنت تستطيع أن تصلى وأن تترك الصلاة، وكذلك الصوم، وكذلك الزكاة، لماذا ترك هذه التكليفات وأعطى لك فيها أن تختار فى أن تفعل ولا تفعل لأن الله سبحانه وتعالى يريدنا كذلك، فلو كان الله سبحانه وتعالى يريد أن نذهب إليه قهراً، لاستطاع وهو قادر على ذلك.

وإذا أراد أن يخلقنا مسخرين لعبادته، لكنا كالملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يثبت أن من خلقه من يذهب إليه

اختيارا، وهو قادر ألا يذهب، لماذا؟ لأن هذه صفة المحبوبية للمعبود، لو أن الله سبحانه وتعالى جعل كل الناس مؤمنين، لكان ذلك صفة القهرية، ولكن الله يريد المحبوبية التى تجعلك وأنت قادر على ألا تطيع، ومع ذلك تطيع.

وإذا أردنا أن نضرب بذلك مثلاً، ولله المثل الأعلى، نقول هب أن لديك عبدين، واحد اسمه سعد، وواحد اسمه سعيد الأول تقيده وترسله إلى حيث تريد، لا يجرؤ على أن يعصيك لأنك تستخدم معه القهر، أما الثانى فتتركه بلا قيود، ولكنه يفعل ما تطلبه منه مع أنه قادر على العصيان، فى هذه الحالة يكون الثانى يطيع أوامرك لأنه يحب، وقد يكون هذا الحب من العطاء عطاء الله لنا فى الدنيا والآخرة. .ذلك العطاء الذى يسترنا وينجينا ويحيينا الحياة الطيبة، ثم يعطينا الجنة فى الآخرة، يدفعنا إلى عبادة الله حبا فى عطائه، وبعض المتصوفين يعرفون أن عطاء الله هو الأنس بلقائه، هذا يكون من أجل لقاء الله سبحانه وتعالى والتنعم بهذا اللقاء.

ولقد قالت رابعة العدوية: «اللهم إن كنت تعلم أننى أعبدك طمعاً فى جنتك فاحرمنى منها، وإن كنت تعلم أننى أعبدك خوفا من نارك فأدخلنى فيها، فأنا أعبدك لأنك تستحق أن تعبد».

وهكذا خلقنا الله سبحانه وتعالى فى الحياة مختارين لنعبده، وأنت حين تستعرض أفراد الإنس وأفراد الجن، تجد فوارق فى العطاءات، البشر منا كأناس هم أفراد متساوون، إنسان وإنسان، ولكن قد يعطى الله فرصا لأحدنا أكثر من الآخر، وكذلك توجد هذه الفوارق فى جنس الإنس والجان، فالله تبارك وتعالى خلق الإنسان من طين وخلق الجن من نار، وعناصر المواد التى تكون منها كإنسان تتحكم فى طبيعته، فإذا وقفت أنا مثلاً وراء جدار فإنه لا يظهر منى شىء من أمام هذا الجدار، أى إننى بطبيعتى كإنسان من طين، لا أستطيع أن أخترقه، ولا أن يرانى أحد وأنا مختبئ خلفه، ولكن لو أوقدنا نارا خلف هذا الجدار وأنت جالس أمامه، فربما ترى وهج النار، إذن فالوهج نفذ من الجدار، بينما الطين بقى جامدا لا يستطيع أن ينفذ، كذلك الجن فقد خلقه الله من نار، أى إن الله سبحانه وتعالى أعطاه خصائص لم يعطها للإنسان، وهكذا كان الجن بحكم خلقه متميزا عن البشرية، ولكن الله سبحانه وتعالى يأتى للجنس الأدنى وهو المخلوق من طين ويجعله يتميز على الجنس الأعلى، فيأمر الملائكة أن يسجدوا له، ويسخرهم لشؤونه، ويعطى لمن يشاء القدرة على أن يسخر الجن ويجعله خادما له، كما أعطى لسليمان عليه السلام، بحيث كان البشر هنا حاكما للجن وأجناس أخرى متميزا عليها.

لماذا فعل الله سبحانه ذلك؟ ليميز أن المسألة ليست بعنصر الخلق، ولكن بإرادة الخالق، الله سبحانه وتعالى يريد أن يخبرنا أنه الأعلى، لتعلم أن القوانين لا تحكم الله سبحانه وتعالى، ولكن الله هو الذى يحكم القوانين، هذه لا قيود لها على قدرة الله

سبحانه وتعالى، أى إن قدرة الله التى احتفظ بها لنفسه هى قدرة مطلقة، وطلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى من صفاته، ولكن الله شاءت رحمته فى كل أمر غيبى عنا أن يقربه إلينا ليجعله فى حدود الفهم البشرى وتلك هداية للبشر ورفقاً بعقولهم، فالله سبحانه وتعالى مثلاً جعل الذرية من الذكر والأنثى، هذا هو قانون الحياة، ولكنه يأتى بخلق آدم بلا أب ولا أم، وبخلق حواء بدون أنثى من ضلع آدم، وبخلق عيسى ابن مريم عليهما السلام، ثم يخلق من الذكر والأنثى، وهذا قانون الكون، ولكنه يخضع لمشيئة الله، فيجعل الله سبحانه وتعالى من يشاء عقيما أى إنه رغم وجود الذكر والأنثى لا تحدث ذرية، والله سبحانه وتعالى يضرب لنا هذه الأمثال كدليل على طلاقة القدرة، وأن القوانين لا تحكم الله، وقدرة الله فوق كل قانون، والله يفعل هذا فى أمثلة قليلة وليس على العموم ؛ لأن إرادة الله شاءت أن تمضى الحياة فى الأرض بالأسباب، أى بالقوانين التى وضعها الله لها، ولكن حتى لا نترك الله ونعبد هذه القوانين والأسباب، ونعتقد أنها تعطى وحدها من دون المسبب أو الخالق، فقد ضرب الله لنا هذه الأمثلة، لنعرف أن إرادة الله فوق القوانين وفوق كل شىء، وقد جعل الله جنيا فى خدمة الإنس، مصداقا لقوله: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦].

وحين نقرأ هذه الآية نعرف أن الله إذا أعطى فرصاً غير متكافئة يحاسب عليها، أى إن الأساس فى الكون هو الفرصة للجميع، كل إنسان ميسر لما خلق له، فيه ميزات تساوى الميزات التى يحصل عليها الآخر، فإذا استطاع إنسان أن يسخر جنيا حصل على فرصة أكبر من أفراد جنسه، لأنه فى هذه الحالة يكون فى خدمته من يملك قانونا أقوى، ويستطيع أن يفعل ما لا يستطيع أن يفعله غيره من البشر، حينذاك إذا استبد بهذا الإنسان هواه وأنانيته، واستخدم هذه الميزة فى الشر بدلا من الخير، سلط الله عليه ما يجعله مرهقا متعبا فى حياته، ولذلك نجد أمثال هؤلاء الناس يعيشون حياة تعسة شقية، وينتهى أمرهم بالانتحار أو الجنون.

إذن . الذى يأخذ فرصة أعلى من غيره، قد تشقيه ولا تسعده، والذى يعطيه الله فرصة أقوى إذا لم يستخدمها فى الخير، سلط عليه الشقاء، ولذلك نجد من يصل إلى فرصة أعلى نحن نغبطه على أنه سيعيش حياة كريمة، ولكن الحقيقة أنه ربما تجلب له هذه الفرصة الشقاء والتعاسة، وذلك هو قانون التوازن فى الدنيا، أى مجتمع، المجتمع الذى لا يصلح إلا إذا تكافأت فيه الفرص، قرية آمنة مطمئنة، ثم يأتى ويحصل فيها على السلاح، ويعطيه فرصة غير متكافئة مع أهل القرية، ويجعله هو الأقوى إذا استخدم هذا السلاح فى الدفاع عن القرية ضد أى مجرم يعبث بأمنها، أو ضد أى إنسان يريد أن يهددها، بارك الله فى علمه ولكن إذا استخدم هذا السلاح فى فرض الإتاوات على الناس والظلم فى الأرض، وأن يكون هو الأقوى، سلط الله عليه من أهل القرية، أو من

خارجها، من يأتى ويحمل سلاحا ويقف ليهدده هو، ويصبح هنا تكافؤ فرص، لأن الذى يمتلك السلاح فى هذه الحالة يخشى ذلك القادم أو الذى يحمل سلاحا من أهل القرية، فيبدأ فى مراجعة نفسه ويبتعد عن طغيانه، فإذا أخذه غرور الدنيا ولم يفعل ذلك، فقد يدفع حياته ثمنا لتجبره وبعده عما أمر به الله، إذن فوجود الإنسان الذى يخل بتكافؤ الفرصة فى المجتمع، يفسد هذا المجتمع، فيأتى الله سبحانه وتعالى بمن يعيد التوازن إليه، وفى هذا التوازن يكون الصلاح، فتكافؤ الفرص فى الحياة هو التوازن، فإذا اختل ذلك فسد المجتمع، كذلك الذى يستعين بقوى غير قوى البشر كالجن مثلاً، تجد شكله منفراً، ورغم أنه قد يستخف بعقول بعض البشر، ويحصل منهم على أموال، إلا أنك دائما تجده مفلسا معسرا ويموت فى أسوأ حال.

إذن.. الفرصة غير المتكافئة لا تجلب له إلا الشقاء، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾.

سليمان.. وتسخير الجان لنفع الناس

اللّه سبحانه وتعالى حين سخر الجن لسليمان، سخرهم لنفع الناس وعمارة الأرض، ولم يسخرهم فى الإيذاء، فالذين يسخرونهم فى الإيذاء يجنون الشر، وهذه رحمة من اللّه تبارك بعباده، لأنه لو أعطى لعدد من البشر فرصة لم تتح للآخرين، فإن القسوة والشقاء سيسودان العالم، خصوصا إذا استغل من أعطى هذه الفرصة ليزداد بها شرا ومعصية.

ونريد أن نلفت الأنظار هنا إلى قوله سبحانه وتعالى فى تسخير الجن لسليمان: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾ [البقرة: ١٠٢]، أى: إن اللّه سبحانه وتعالى حين سخر لسليمان الجن، كان عليماً بأن سليمان لم يكفر، ولن يستخدم هذه القوة المسخرة له فى الشر، ولكن استخدمهم فى الخير.

ثم يقول اللّه تعالى عن الملكين هاروت وماروت اللذين علما الناس السحر، ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾، وكلمة ﴿فَلَا تَكْفُرْ﴾ معناها أنك إذا أخذت قوة ظاهرية فى الكون فإياك أن تستعملها فى غير الخير، وهذا ينطبق على العموم فى أى قوة يعطيها اللّه لك، فأنت وقت الطلب تقول يا رب أعطنى كذا لأعبدك حق عبادتك وأفعل الخير فى الكون، فإياك أن تستعملها فى غير الخير، فإذا أعطاك اللّه غرتك قوتك الظاهرية، وبدأت تفسد فى الأرض، فإذا أردت حكما مثلاً دعوت اللّه سبحانه وتعالى أن يمكنك فى الأرض، واستجاب اللّه لك، فإذا بك بعد أن يمكنك اللّه فى الأرض تستخدم ما أعطاه لك فى محاربة ونشر الظلم والفساد، معتقدا أنك فى منعة من اللّه سبحانه وتعالى، وهكذا وقت أن كنت تطلب تدعى الخير، وبعد أن تمكنت اتجهت إلى الشر، وهنا يعلمنا اللّه مسلك الشيطان فى النفس البشرية، فأنت إذا ملكت سيأتى الشيطان ليوسوس فى نفسك، كما وسوس فى نفس آدم، فيوحى إليك أن ملكك هذا لا يبلى؛ أى لا يزول، وأنك خالد لن تلقى اللّه ليحاسبك، فتنسى يوم الحساب، وتبدأ تفسد فى الأرض، ثم بعد ذلك يزول ملكك، ويذهب عنك الجاه والسلطان، وتلقى اللّه وحيداً مجرداً من كل جاه الدنيا، حينئذٍ يكون الشيطان قد أفسد عليك الفرصة التى أخذتها، بدلا من أن تكون أنت الأعلى أصبحت أنت الأسفل؛ ولذلك فإن اللّه سبحانه وتعالى طلب منا حين نقرأ القرآن، أن نستعيذ باللّه من الشيطان الرجيم، لماذا؟ لأنك لو استعنت بالخالق بين خلقه، لا يستطيع هذا الخلق أن يفسد نفسك، والشيطان يريد وأنت تقرأ القرآن أن يمنعك من أن تتلقى فيوضات القرآن، فإذا استعنت باللّه فالشيطان يخمد؛ لأنه إذا ذُكر اللّه

خمد الشيطان الرجيم، إذن.. فقول الله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨]، يُقال ليصبح جهاز استقبالك لصفاء القرآن بلا شوائب، والقرآن كلام الله، فأنت تسمعه سبحانه وتعالى يتكلم.

ولذلك قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

لماذا؟ لأن الله سبحانه وتعالى هو الذى يتكلم، وأنت حين تتحدث وقت قراءة القرآن فأنك لا تشوشر على قارئه، ولكنك تشوشر على كلام الله؛ ولذلك فإن جعفر الصادق، رضى الله تعالى عنه، كان أكثر أهل بيت رسول الله علماً بأسرار القرآن، لذلك قال: عجبت لمن يصيبه الهم والخوف، خوف المكر به، أنه لم يقرأ قول الله تعالى: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، وقد سمعت الله بعدها يقول: ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾ [آل عمران: ١٧٤]، وهكذا كان يقول عن القرآن دائما سمعت الله يقول: والقرآن سمى قرآنا لأنه يقرأ، وسمى كتابا لأنه يكتب، وجعله الله سبحانه وتعالى حفظا فى الصدور وتسجيلا فى السطور، والقرآن نزل ليذكر الناس الطريق المستقيم، ويرسم لهم الحياة الطيبة الآمنة على الأرض، لكن الله سبحانه وتعالى لينصف خلقه ولا يجعل لأحد حجة يوم القيامة. حفظ القرآن من التدخل البشرى فلم يستطع أحد ولن يستطيع أن يخفى شيئا من القرآن، أو يبدل أو يغير فيه، ولو نظرنا إلى منهج القرآن، لوجدنا الناس كلما تقدم بهم الزمن، تحللوا من المنهج وابتعدوا عنه، ولكن مع تحللهم من المنهج فإن حفظ القرآن فى ارتفاع مستمر، وهنا تظهر معجزة من معجزات القرآن الكريم، تلك أن الله قد علم أولا هوى النفس البشرية، وعلم أن هذه النفس ستحيد عن الطريق المستقيم، فماذا فعل الله؟

لقد كانت الكتب السماوية التى سبقت القرآن أمانة فى عنق البشر، ومعنى ذلك أن الله سبحانه وتعالى قد ائتمن البشر عليها، هم الذين يحفظونها من أى تعديل أو تحريف، أو إغفال لذكر أحكام الله، ولكن الله سبحانه وتعالى قد اختص القرآن بأنه هو الذى يحفظه مصداقا لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ وبذلك بقى القرآن الكريم أربعة عشر قرنا، وسيبقى إلى يوم القيامة محفوظا من أى عبث بشرى، أو أى تدخل من إنسان مهما كان، لقد بذلت محاولات ودبرت مؤامرات، ولكن أحداً لم يستطع ولن يستطيع أن يمس القرآن الكريم؛ لأن الله سبحانه وتعالى يحفظه ويقيه من أى تحريف أو تدخل بشرى، ولذلك عندما درس المستشرقون القرآن والكتب السماوية الأخرى، وجدوا تعارضا بين الكتب السماوية وبين حقائق الكون، ولكنهم لم يجدوا أى تعارض بين القرآن وبين قوانين الكون، لماذا؟ لأن الكتب الأخرى دخلها هوى البشر، نسوا بعض ما ذكروا به، والذى لم ينسوه أخفوه، والذى لم يخفوه حرفوه وبدلوه، أما القرآن فإن الله سبحانه

وتعالى يحفظه ؛ لذلك فإنك ترى أيضا أنه بينما خط المسلمين فى تطبيق المنهج يقل مع مرور الزمن، ومع المغريات المادية، فإن خط حفظ القرآن يعلو ويتضاعف، بل إن الله سبحانه وتعالى قد سخر غير المؤمنين للمساهمة فى خط حفظ القرآن، ليدل على أن هذا الخط منه هو وحده لا دخل لبشر فيه، فأجد ألمانيا مثلا تطبع القرآن الكريم بشكل جميل فى لوحة واحدة، وإيطاليا واليابان تطبعان القرآن طباعة متقنة.. وربما لا تقومان بطبع الإنجيل ولا التوراة، وتجد الإنسان يضع المصحف فى جيبه أو فى سيارته، وآيات قرآنية تعلق على الصدور، والقرآن فى كل بيت حتى ذلك الذى لا يتبع منهج الله، وتعجب أنت أن خط الإيمان يميل إلى الهبوط، وخط حفظ القرآن يميل إلى الصعود، نقول لك إنه إذا كان الخطان يتبعان إرادة البشر لقال المنطق أن يسيرا فى اتجاه واحد، ولكن هناك خطا يتبع الإرادة البشرية وهو الإيمان، وخطاً يتبع إرادة الله وهو حفظ القرآن، الخط البشرى يتناقص والخط الإلهى يعلو ويزداد ؛ ذلك لأن الحفظ مقطوع به من الله، وبوعد منه سبحانه وتعالى، ولو كان الأمر منطقيا لأهملنا تسجيل القرآن كما أهمل تسجيل منهجه من حياتنا، ولكن الإهمال يحمل سلوك البشر، وتوثيق المنهج من حيث تسجيله وحفظه والعناية به هو من الله، إذن فلا عذر لأحد، فإن منهج الله حفظا وتسجيلا لن يختفى من الوجود، وسيظل القرآن لكل من أراد أن يستقيم ويتبع المنهج.

ولكن الناس حين يصرفون أنفسهم عن القرآن يكونون داخلين فى دائرة التكليف أو الأمر الاختيارى، ودائرة التكليف تستطيع فيها أن تفعل أو لا تفعل، تطيع أو لا تطيع، وما دام الله سبحانه وتعالى قد قال أفعل فلابد أنك تستطيع ألا تفعل، وما دام قد قال لا تفعل فإنك تستطيع أن تفعل، وإلا ما قالها، والله سبحانه وتعالى قد جعل لك أموراً اختيارية، وأموراً بلا اختيار، ومعظم الأشياء خلاف العبادة والتكليف وأمور الحياة الشخصية، الإنسان غير مخير فيها، شكل الإنسان، هل هو طويل أم قصير، ذكى أو غبى، أبيض أم أسود، قوى البنية أم ضعيف الجسد، مَنْ هو أبوه ومَنْ هى أمه، ما هى البلد الذى سيموت فيها، كل هذا لا اختيار للبشر فيه، والكون بنظامه المتقن هواؤه وماؤه، أرضه وسماؤه، شمسه وقمره، نجومه وجباله، نظامه المتقن الذى لا يختل، البالغ الدقة.. كل هذا لا اختيار للبشر فيه، الحياة والموت، الصحة والمرض كلها عوامل لا تخضع للمشيئة البشرية، رغم ما يدعيه عدد من الناس، فالطبيب هو واسطة الشفاء، وليس معطى الشفاء والله سبحانه وتعالى أحيانا يهدى أصغر الأطباء إلى الداء فيعالجه، وأحيانا يعمى أكبر الأطباء عن الداء فلا يستطيع له علاجا.

بل إن الجنس البشرى لا دخل للإنسان فى أجزاء كثيرة منه، القلب يدق سواء أردت أم لم ترد، والمعدة تعمل على هضم الطعام بدون أن تصدر لها أمراً بذلك، والدورة الدموية تؤدى مهمتها وأنا لا أكاد أحس بها، وأشياء كثيرة فى الجسم تمضى بدون إرادة

منى، بل إنها فى كثير من الأحيان تؤدى وظيفتها وأنا نائم لا أدرى شيئا، كل هذه الأشياء لا اختيار لى فيها، ولا حساب عليها، والكون بجماده ونباته وحيوانه وأجناسه الأخرى غير الإنس والجان مقهورة لله سبحانه وتعالى، ولذلك نجد كل الأنظمة تمضى تؤدى مهمتها، ولكن الخلل فى الكون يجىء من ناحية ما جعل الله سبحانه وتعالى الإنسان مختارا فيه، فالاختيار هنا يجعل الإنسان يؤدى أعمالا ضد المنهج فيفسد الكون.

وإذا كنا نريد أن نعيش القرآن، وأن نحيا بما أمر الله؛ فإننا لا نطمع فى أن نفسر القرآن؛ لأن أى تفسير للقرآن متروك للزمن، وسيظل القرآن يعطى إلى أن تأتى الساعة؛ وفى كل زمن سيتسع القرآن تفسيره تفسيرا يتفق مع قضايا الكون كله، أما الأحكام التكليفية أو منهج العبادة فى القرآن الكريم، فإنها لا تحتاج إلى تفسير، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد فسرها، وليس منا من هو أعلم من رسول الله.

فالأمر فى أحكام التكليف والعبادة يتعلق بالثواب والعقاب، وهذه يتساوى عندها من أدرك عصر النبوة ومن لم يدركه إلى قيام الساعة؛ ولذلك كان التفسير كاملاً حتى لا يبقى هناك شىء غامض فى أمور العبادة، فلأنها لا تطبق الحياة التى يشير إليها القرآن الكريم، فالذى يستقبل القرآن الكريم استقبالاً إيمانيا لا يقف أمامه حكم من أحكام العبادة، ولذلك فإننى أحب أن أقول إن كل مفسر يتعرض للقرآن إنما يسجل خواطره الإيمانية حول القرآن، وإذا أردت أن أحوم بخواطرى حول القرآن فإننى أجد أن الله سبحانه وتعالى قد طلب منا أن نقرأ الآية، وقبل أن نفسرها أن نستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، وذلك هو أول لقاء بين المؤمن وبين القرآن، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ [النحل: ٩٨]، لماذا؟

لأن الشيطان عدو للإنسان، وتتمثل هذه العداوة فى آدم عليه السلام أصل البشرية كلها، لقد استكبر الشيطان وهو يرى الله يخص الإنسان برحمته فيخلقه بيديه وينفخ فيه روحه، ويجعله خليفته فى الأرض، استكبر الشيطان كيف يفعل الله هذا لآدم ويتركه هو، وهو الأكثر قدرة بحكم خلقه من نار، وعندما أمر الله الملائكة أن يسجدوا لآدم رد الشيطان الأمر إلى الله، لم يعصه فقط، بل وضع نفسه فى موضع مساو لله تعالى، وقال ﴿ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ [ص: ٧٦]، ﴿ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ [الإسراء: ٦١]، وكان الشيطان ممثلا فى إبليس، فطرده الله من رحمته.

إذا أردت واتجهت بنيتك أن تقرأ القرآن الكريم، فتقدم لذلك بأن تستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، لماذا؟ هذا أمر طبيعى، فالذى يبعدك عن المنهج ويحاول أن يوسوس لك بعمل الشر، ومعصية الله هو الشيطان، ذلك لأن الشيطان عدو للإنسان، وعداوة الشيطان للإنسان مسبقة، ومنذ الخلق، وهى تتمثل فى عداوة الشيطان لآدم عليه السلام، وذلك حينما استكبر الشيطان عن أمر الله بالسجود لآدم، وقال خلقتنى من نار وخلقته من

طين، وقال: ﴿ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾، وهكذا جاءت عداوة الشيطان من أنه يعتقد أن الإنسان أقل منه، وأنه يعتبر الإنسان من مادة أدنى من المادة التى خلق منها الشيطان، ومن هذا جاء الاستكبار، وكانت معصية إبليس لأمر الله، فأعلن سبحانه وتعالى طرده من رحمته، وسمّاه رجيما مبعدا.

أردتهم خاضعين للهداية بأمرك أنت، وبدون إرادة منهم، ما استطعت أن أصل إلى واحد من البشر، ولكنك تركت أمر الهداية للاختيار، فالذى هو مخلص فى هدايته، أنا لا أستطيع أن أقترب منه، أما الذى لم تدخل الهداية إلى قلبه لتصبح يقينا، والذى ينظر للدنيا بعين.. والآخرة بعين، فأنا سأحاول أن أغويه لينظر إلى الدنيا وحدها.

الشيطان.. وطرق غوايته للإنسان

معصية الشيطان تختلف عن معصية البشر، فالشيطان عصى الله سبحانه وتعالى، ورفض أمر السجود لآدم، وكانت هذه معصية، وآدم عصى الله وأكل من الشجرة، وهذه معصية ولكن كلتا المعصيتين مختلفتان تماما، فالشيطان عصى واستكبر على الله سبحانه وتعالى، وأصر على المعصية، وقال: ﴿ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص: ٨٢]، وتحدى وأمعن فى التحدى ورفض أن يعترف أنه على خطأ، بل رد الأمر على الآمر وهو الله سبحانه وتعالى.

أما آدم عليه السلام فإنه حينما عصى اعترف بذنبه وتاب إلى الله، ولم يصر على ما فعل، بل قال: يارب إنى إنسان ضعيف أغوانى الشيطان وأذلنى.. وإننى يارب أعلم أنك أنت الحق، وأن قولك الحق، وأن منهجك الحق، ولكن نفسى ضعيفة، لم تتحمل المنهج فوقعت فى الخطأ، وإنى أعود إليك يا رب تائبا، نادما، مستغفرا.

كان هذا هو منهج آدم، اعترف بألوهية الله، واعترف بعظم الذنب والتوبة عنه، والتعهد بعدم العودة إليه، أما إبليس، فإنه على عكس ذلك، لم يعترف بذنبه، بل أصر على المعصية، وأصر على أن رأيه هو الحق، وأنه لم يخطئ، وأنه حين يرد أمر الله فإنه يفعل ذلك وهو يعتقد أنه على صواب، ولذلك أبعده الله وطرده من رحمته، فبماذا قابل إبليس هذا الطرد، قابله بإمعان فى التحدى بأن قال: ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾، ولكنه حتى وهو فى المعصية، كان يعلم أن أمر الله نافذ ولذلك قال ﴿ فَبِعِزَّتِكَ ﴾، وجاء من باب العزة لله لأن الله سبحانه وتعالى غنى عن العالمين، ولذلك من هذا الباب، باب غنى الله سبحانه وتعالى عن كل خلقه وعدم حاجته إليهم، أقسم إبليس، ولم يجد منفذا ينفذ منه إلى البشر، إلا بعزة خالقهم عنهم وعدم حاجته إليهم.

ولو أن الله تعالى أراد أن يكون كل الخلق طائعين له، مهتدين لمنهجه، لما استطاع إبليس أن يقترب منهم، ولذلك استثنى فقال: ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص: ٨٣]، أى: إن الذى يريده الله ويصطفيه عبدا مخلصا له، لا يستطيع إبليس أن يصل إليه ؛ لأن سلطان الله يمنعه.

ولكن ما هى طرق إغواء الشيطان للإنسان المؤمن..؟ لقد بينها الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم وهى كما يلى: ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الأعراف: ١٦]، أى: إن إبليس لا يبذل جهده لمن باع نفسه للمعصية، وانطلق يخالف كل ما أمر به الله، فالنفس الأمارة بالسوء لها شيطانها، وهى ليست محتاجة إلى إغواء لأنها تأمر صاحبها بالسوء ؛ لذلك فإن إبليس لا يذهب إلى الحانات مثلاً أو بيوت الدعارة، ويبذل فيها جهدا لأن هذه

لا تحتاج إلى جهد منه، فكل من ذهب إلى هذه الأماكن فإنما هو ذاهب إلى معصية، وليس فى حاجة إلى إغواء، وقد اختار هذا الطريق، ولكن إبليس يذهب إلى مهابط الطاعة، أو أماكن العبادة، هؤلاء الذين يبذل إبليس معهم كل جهده، أو كل حيله فى إغوائهم، ليصرفهم عن عبادة الله.

ولذلك لم يقل إبليس فى حديثه لأقعدن لهم على الطريق المعوج ؛ لأن الطريق المعوج لا يحتاج إلى جهد ؛ لأنه بطبيعته يتبع الشيطان، ومن هنا فإن إبليس يغوى أهل الطاعة لا أهل الشر والفساد، بأن يزين لهم المعصية، أو يغريهم بمد أيديهم إلى المال الحرام، أو يزين لهم أمرا من أمور الدنيا التى نهى عنها الله سبحانه وتعالى.

وقصة إبليس فى غواية آدم لعل فيها الشرح الكافى، فآدم عاش فى جنة يجد فيها كل ما يطلب، بلا تعب، وبلا عمل، وحرمت عليه شجرة واحدة من الجنة كلها التى فيها ألوف الأشجار تعطى كل الثمرات، فجاء إبليس ليغرى آدم على المعصية، فأخذ يزين له هذه الشجرة، ويزين له مخالفة أمر الله سبحانه وتعالى، ويقول له: ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٠]، ثم قال: ﴿ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾ [طه: ١٢٠].

وهكذا كانت الغواية فى أن إبليس صور لآدم أن الله قد منعه من هذه الشجرة ليمنع عنه خيرا فلما صدق آدم إبليس، عرف أن الله قد منعه من الشجرة لأنه يريد له الخير، وكان هذا رحمة من الله سبحانه وتعالى أن يبلغنا حتى نفطن إلى طريق إبليس إلى الغواية، فلا خير فى خير يؤدى إلى النار ومعصية الله، ولا شر فى شر يؤدى إلى الجنة وطاعة الله، وهكذا أراد الله أن يلفتنا لفتة كريمة إلى أنه اختار للإنسان طريق الخير والحياة الكريمة فى الأرض، ورسمه له وبينه، ولكن الشيطان يأتى ويزين لنا طريق الباطل، ويحاول أن يصور أن فيه خيرا، فإذا سقط الإنسان فى الشر، هرب إبليس ونال الإنسان جزاءه، فالذى يسرق مثلاً لا يعتقد أبدا أن أمره سينكشف، ذلك لأنه لو فكر لحظة واحدة فى أن أمره سينكشف، وأنه سيلاقى جزاءه لتردد كثيرا فى أن يسرق، ولكن الشيطان يقول له مد يدك وخذ هذا المال. إن أحدا لن يراك، وتستطيع أن تفوز به دونما عقاب، ويدله على طريقة للتزييف و التزوير مثلاً، ويقنعه بأن أحدا لن يكشفها. والقاتل حين يقدم على جريمته، فإنه يقدم عليها وهو معتقد أن أحدا لن يراه ولن يكشف أمره، ولذلك فإن الطرق الحديثة فى مكافحة جريمة التخريب مثلاً، تقتضى أول ما تقتضى أن يبقى كل من فى المكان حتى ينتهى الاحتفال تماماً ؛ لأنه من النادر أن يضع أحد قنبلة لينسف بها نفسه، لذلك فإنه إن لم يؤمن تماما أنه سينجو فإنه لن يقوم بهذا العمل، وكذلك الجرائم الأخرى، يزين الشيطان للإنسان أنه سيفلت منها، ويظل يوسوس له ويقنعه حتى يقتنع، ثم بعد ذلك ينكشف أمره، فيهرب الشيطان ويتركه يواجه مصيره.

لو أن آدم قد حكم عقله لعلم كذب منهج إبليس، فإبليس كما يدعى يدله على شجرة الخلد، ولو كان حقيقة أن هذه الشجرة شجرة الخلد لما قال إبليس لله سبحانه وتعالى: ﴿ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الأعراف: ١٤]، ولما طلب منه أن يبقى على حياته إلى يوم القيامة، بل لأكل من شجرة الخلد ونال الخلد وأصبح غنيا عن الله سبحانه وتعالى، ولكن إبليس دخل من ناحية الغفلة فى النفس البشرية، واستطاع أن يقود آدم إلى المعصية.

وكما دخل إبليس من ناحية الغفلة لآدم، دخل من ناحية الغفلة لأبناء آدم، ولو أن أبناء آدم حكموا عقولهم، وتذكروا أن هناك عداوة سابقة بين آدم وإبليس، وأن إبليس طرد من الجنة بسبب آدم، وأنه طرد من رحمة الله بسبب آدم، ولذلك فهو عدو لآدم وذريته حتى يوم القيامة، لعرفوا أن إبليس طلب من الله سبحانه وتعالى إمهاله إلى يوم البعث ليتنقم من آدم وأولاده بإبعادهم عن الطريق المستقيم، وإغوائهم على معصية الله. فإذا عرفنا ذلك أخذنا حذرنا منه، وحين نأخذ حذرنا وتنكشف وسوسة الشيطان، فإنه يهرب.

شرح إبليس كيف سيفسد الصراط المستقيم، قال: ﴿ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ﴾، يعني من أمامهم ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾، وهذه جهة ثانية، ﴿ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ ﴾، وتلك جهة ثالثة، ﴿ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ﴾ [الأعراف: ١٧]، وهذه جهة رابعة، ولكن الجهات ست وليست أربعاً فما هما الجهتان الباقيتان اللتان لا يأتى منهما الشيطان؟ هما: فوق وتحت.

لماذا هرب إبليس من ذِكْر هاتين الجهتين بالذات، ولم يقل سآتى من فوقهم ومن تحتهم؟ لأنه يعلم أن الجهة الفوقية إلهية، ولذلك ابتعد عنها، وأن الجهة السفلى جهة السجود تمثل العبودية البشرية حيث يسجد الإنسان لله؛ ولذلك يبتعد إبليس عن هاتين الجهتين تماما، وأنت إذا ما نظرت إلى ما يروِّجه الملحدون فى كل عصر تجد عجباً، تجد كل هذه الجهات الأربع مذكورة عن الملحدين، ما عدا الجهة العليا والجهة السفلى، فأحدهم يقول عن نفسه تقدمى، أى جهة الأمام، والثانى يقال عنه رجعى أى جهة الخلف، آخر يقال عنه يمينى، جهة اليمين، وآخر يقال عنه يسارى، جهه اليسار، ولكن لا أحد من المذاهب الإلحادية يسمى نفسه فوقى؛ لأن المستوى الفوقى هو للألوهية، ولا يسمى نفسه تحتى لأنه مكان السجود للعبودية، ونحن نقول لكل أصحاب هذه المذاهب نحن لسنا تقدميين ندعو إلى التحلل، ولا رجعيين نرفض أن نتقدم خطوة إلى الأمام مع الزمن، ولا يمينيين على عرف العصر، ولا يساريين أيضاً على عرف العصر، وإنما نحن أمة محمدية فوقية كل أمورها تأتى من الفوقية الإلهية.

لا بد أن نشرح هذه النقطة قليلاً، نحن أمة محمدية فوقية، تعبد الله بإعلان عبوديتها وخضوعها له، ولذلك حين نتبع هذا المنهج، منهج السماء، نكون قد تميزنا عن البشر جميعاً، كيف؟ لأن كل إنسان فى الدنيا لا يخضع لله سبحانه وتعالى، ولا يأخذ منهجه عنه، هو خاضع لمنهج بشرى، وضعه مساوٍ له من البشر، والبشر له هوى، وفى كل نفس بشرية

هوى تريد أن تحققه، ولذلك فهى تضع المنهج الذى يمكنها من أن تتميز على الناس وإذا نظرت إلى أى منهج بشرى وجدت أنه يحقق الفائدة لمن وضعوه، ويقدم لهم ميزات فوق ميزات غيرهم، فذلك هو طريق البشر. طبقة تضع منهجا لتتميز به عن الآخرين وتستفيد هى وحدها، وقد يكون هذا المنهج من وضع مجموعة أفراد وليست طبقة، ولكن المهم فى هذا كله أن الفائدة تعود على عدد محدود من الناس هم واضعو هذا المنهج، ولكنك إذا خضعت لحكم الله، فاعلم أنك خاضع لغير مساويك، والله سبحانه وتعالى لا هوى له، فهو غنى عن العالمين، أنت محتاج إليه، وهو غير محتاج لك.

ولذلك حين يضع لك منهجا فإنه يضع هذا المنهج ليعطيك الخير، ولا يضعه ليمنع عنك خيرا، أو ليستأثر هو بالخير، لأنه أولاً هو مصدر الخير كله، وثانيا هو غير محتاج لما تملك ولا ما يملك البشر جميعاً، ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى المنزه عن الهوى إذا وضع المنهج فلا ذلة، لماذا؟ لأنه يضع المنهج بقواعد ثابتة تسرى على الجميع، فأنت خاضع لمنهج الله سواء كنت تربح قروشاً قليلة لا تكاد تكفيك أو عندك مال الدنيا ولا ذلة؛ لأنك أنت ومن هو أعلى منك خاضعون لمنهج السماء؛ ولذلك فعندما تتبع منهج الله تعيش عزيزا، مرفوع الرأس، ماضياً فى طريق الحق، والله لا يأخذ منك ولكن يعطيك ويفتح لك، لا يذلك ولكنه يعزك.

ربما كانت تلك الحكمة هى التى أدت إلى أن يختار الله سبحانه وتعالى نبيا أميا لم يتعلم، ذلك أن الله حينما اختار رسوله من البشر، والرسالات فى تبليغها للناس لابد أن تتم عن طريق البشر، فبشرية الرسول ضرورة حتمية فى رسالات الله إلى أهل الأرض، لابد لأن الرسالة السماوية تمثل النظرية، وحياة الرسول الكريم تمثل التطبيق، وإذا لم يكن الرسول بشرا كان ملكا، أو من هو فوق قدرة البشر، لقال الناس كيف نتبع ملكاً ونحن بشر، إن هذا الملك له قانون، وهو مخلوق من نور ونحن مخلوقون من طين، هو يستطيع أن يعيش بلا طعام فلا يأكل ولا يشرب، ولكن نحن لا بد أن نبحث عن الرزق لنطعم أنفسنا وأولادنا، ولا يحتج بعضهم بأن عدم بشرية الرسول تجعل تطبيق المنهج مستحيلاً، ولكن كون الرسول بشرا، وكونه بشرا من بينهم يعرفه قومه خير المعرفة، يبطل هذه الحجة، ويجعل تطبيق المنهج سهلاً وميسرا؛ لأن الذى يقوم به بشر، إذن فالمنهج فى قدرة البشر، وهكذا فإن بشرية الرسول حتمية لسلامة التطبيق.

فإذا كانت بشرية الرسول حتمية، فلماذا اختار الله سبحانه وتعالى محمدا أميا لا يقرأ ولا يكتب، معنى أمى: أى كما ولدته أمه، لم يأخذ ثقافة من البشر، فلا هو تثقف على الشرق ولا هو تثقف على الغرب، ولا هو قرأ لفيلسوف، ولا اطلع على نظرية إنسان، بل هو لم يقرأ كلمة فى حياته، عندما يأتى هذا الإنسان بكل هذا الإعجاز القرآنى فهو لا يمكن أن يأتى به من ذاته؛ لأنه غير مؤهل لذلك، ولابد أنه أتى به من الفيض

الإلهى . . من الله، إذن . . فالأمية شرف لرسول الله ودليل على صدق رسالته، وليست مهانة لأمثالنا، بل إن اختيار الله سبحانه وتعالى للعرب فى جاهليتهم ليكونوا هم أمة القرآن له حكمة، فلو نزل هذا القرآن فى أمة متحضرة فى ذلك الوقت . . كفارس أو الروم، لقالوا التقاءات حضارية، وهبات عقلية، وموجات إصلاحية، قام بها أناس عن حضارة وثقافة، ليقودوا حركة الحياة.

ولكن الأمية التى جاءت لتحجب الفكر البشرى عن رسول الله، والجاهلية التى جاءت لتحجب الرؤية الحضارية عن رسول الله، إنما جاءت أيضاً لتؤكد أن هذه الرسالة هى من السماء، وأنه لا دخل للأرض فيها، وما دام ليس للأرض دخل، ولا لثقافتها وحضارتها مكان، فالذى قاله هذا قرآن أوحى إليه من السماء.

والله سبحانه وتعالى حين منع رسول الله بالأمية من ثقافات ومعطيات عقول البشر، وصله بالعلوية التى تعلم البشرية ما لم تعلم.

يحضرنى هنا لقاء الغار، حينما نزل القرآن على محمد عليه الصلاة والسلام مع الملك جبريل وضمه بقوة وقال: ﴿ اقْرَأْ ﴾، ورد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يرتعد من الضمة: «ما أنا بقارئ»[1]، نقول إنه لا تعارض بين الاثنين.

فالرسول حينما قال ما أنا بقارئ، أخذ بالأسباب البشرية فى أنه لم يتعلم القراءة والكتابة، ولذلك كان صادقاً مع نفسه . . وأمام ربه، والله تعالى حينما قال لرسوله: ﴿ اقْرَأْ ﴾، لم يأخذ بالأسباب الأرضية، بل أخذ بالأسباب العلوية، أى يا محمد ستقرأ.

ولكنى لن أرسلك إلى معلم أو مدرسة تتعلم فيها القراءة، ولكننك ستقرأ باسم ربك، أى العلم الذى سيأتيك هو من الله سبحانه وتعالى، وهو علم يحيط بعلم البشرية كلها، ولكنه لا يحتاج منك لأن تتعلم القراءة والكتابة، لأن الله سبحانه وتعالى هو الذى سيعلمك، وسيعلمك ما لم تعلم، فالعلم مصدره الله، وهكذا كان الإعجاز فى الآية الأولى التى نزلت من القرآن تطلب من نبى أُمى أن يقرأ، والنبى وهو يرتعد من ضمة الملك جبريل يقول: «ما أنا بقارئ»، فيأتى الله سبحانه وتعالى ليقول له: أنت ستقرأ وأنا الذى سأعلمك علماً من عند الله، من السماء، لا علم بشر.

وهكذا كانت قضية بشرية، وأمية الرسول تقتضى - كمعجزة - أن المنهج صالح لحياة البشر، وأن العلم القادم ليس هو من نتاج لقاءات العقول، بل علم من السماء، ولذلك تحدى الله سبحانه وتعالى أن يأتى أحد بسورة مثله، وكان هذا التحدى خروجاً بالقرآن عن القدرة البشرية، ذلك أنه حسب علم البشر يأتى إنسان يخترع شيئاً، ثم يأتى بشر آخر بمثل هذا الشىء ويزيد عليه، وكلما تقدم الزمن وكشف الله لعباده عن علم

---

(١) سبق تخريجه.

الأرض جاءت الزيادات بعد ذلك، ولكن القرآن الكريم لأنه من السماء بقى إعجازا أربعة عشر قرنا. وسيبقى إعجازا أبديا، ولذلك نجد أن الأمية الإسلامية قد استطاعت بهذا العلم الإلهى أن تسود الأرض كلها، وأن تقضى على حضارتين كانتا على ما صنع البشر فى الأرض فى ذلك الوقت وهما الحضارة الفارسية و الحضارة الرومانية، كيف تم ذلك؟ هل استطاع القرآن أن يعطى للعرب سلاحا بشريا يفوق أسلحة هذه الدول، أم كشف عن سر القنبلة الذرية مثلاً، لم يحدث ذلك أبدا، إنما جاء هذا الدين الجديد بمنهج من السماء، إذا اتبعناه سدنا الأرض، لماذا؟ لأنك وضعت منهجا سماويا مقابل منهج الأرض، ولذلك فإن المنهج الذى ساد به العرب الأرض، لم يكن منهجا من وضعهم أو اختراعهم، ولو كان منهجاً بشريا لانهزم أمام الروم والفرس، ولكنه منهج علوى من السماء.

أساس عداوة إبليس وغوايته لآدم وذريته

لماذا قال الشيطان إنه سيغوى البشر؟ ولماذا نشأت هذه العداوة الرهيبة؟

أولاً لأن الله فضل الإنسان على سائر المخلوقات وجعله خليفة له فى الأرض، وسخر له الأرض والسماء، وميزه باختيارية العبادة؛ أى إنه يأتى إليه طائعاً مختارا عن حب وود، والشيطان يريد أن يفسد كل هذا لعداوته للإنسان، وزاد الحقد حين اتخذ آدم سبيل التوبة طريقا لغفران ذنب المعصية، ومضى إبليس فى تكبره واتخذ طريق الكبر والمكابرة، ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى قد غفر لآدم، ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧] إذن فآدم وإبليس دخلا فى المعصية ولكن بطريق مختلف، أولهما هو آدم تاب إلى الله واعترف بذنبه وضعفه، فأعطاه الله كلمات يتوب بها ويعود إلى منهج الله، وإبليس أصر على المعصية وأمعن فى المكابرة، وبدلاً من أن يعود إلى الله، قال: لأغوين هذا الذى فضلته علىّ.

وإبليس دائماً يأتى من الباب الذى يرى فيه المنهج ضعيفا، فإذا وجد إنساناً متشددا فى ناحية يأتى من ناحية أخرى تكون ناحية ضعف، فإذا كان الإنسان متشددا فى الصلاة يحافظ عليها ويؤديها فى أوقاتها، جاء إبليس من ناحية المال فيوسوس له حتى لا يخرج الزكاة، ويقتر ويأكل حقوق الناس، مدخلاً السرور إلى نفسه بالوهم بأن هذه الطريقة تزيد ما عنده وتجعله غنيا آمنا مطمئنا، والحقيقة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما نقص مال من صدقة»[1].

والصدقة هى التى تكثر المال، وتضع بركة الله فيه، وتجعله يزداد وينمو، والمال هو مال الله ينتقل من يد إلى يد فى الدنيا، وحينما يحين الأجل يتركه الإنسان ويمضى، ولكن بعض الناس يغفل هذه الناحية ولا يتذكرها، فحينما يجد إبليس إنسانا متشددا فى الصلاة محبا للمال، جاءه من ناحية ضعيفة فيمنعه من الزكاة، ثم يزيد هذا الضعف بأن يغريه بالمال الحرام، وتبدأ المعاصى التى تنسج عودا عودا كما ينسج الحصير ليغطى القلب كله وتمنعه عن ذكر الله، وإذا وجد إبليس فى العبد المؤمن تشددا فى الصلاة و الزكاة وضعفا من ناحية المرأة مثلا، أتاه من ناحية هذا الضعف، فيظل يزين له امرأة خليعة

---

(١) جزء من حديث رواه الطبرانى فى المعجم الصغير [١/ ١٠٢/ ١٤٢] عن أم سلمة رضى الله تعالى عنها، ورواه مسلم [٢٥٨٨/ ٦٩] بلفظ: «ما نقصت صدقة من مال»، والترمذى [٢٠٢٩]، وأحمد فى المسند [٢/ ٢٣٥] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه.

ويزينها فى نظره، ويوسوس له ويوسوس لها حتى يسقط فى الحرام، ومتى سقط فى الزنى سقط فى الكبائر، فإذا كان قويا فى هذه النواحى كلها جاء إبليس وزين له الخمر أو مجلس السوء أو النميمة، المهم أن إبليس يترك نقطة التشدد فى الإنسان ويأتيه من نقطة ضعفه حتى ينفذ إليه من نقطة الضعف، ومتى نفذ بدأ ينسج الحصير عودا عودا.

ولذلك تجد هناك فارقاً بين معصية يوحى بها الشيطان، ومعصية تصر عليها النفس. فإذا حدثتك نفسك بمعصية ووقفت عندها وأصررت عليها، فاعلم أنها هى التى تحاول أن تقودك لمعصية من هذا اللون بالذات؛ لأن النفس تريد من صاحبها أن يكون على لون خاص يحقق لها رغبة أو شهوة، ولكن إبليس ليس على هذا المنوال، فإبليس يريد المؤمن عاصيا على أى شكل من أشكال المعصية، ولا يهمه نوع معين من العصيان فى ذاته، فإذا طرق لك باباً وجدك فيه متشددا متمسكاً لا تصغى إليه، انطلق يطرق باباً آخر فيه نقطة ضعف، وهكذا يظل ينتقل من باب إلى باب حتى تسقط فى قبضته وتستمع إليه.

ولقد فضّل الله أمر الشيطان، فطرده من رحمته وجعله رجيما مبعداً، وهو يعرف أن مصيره النار، وإياكم أن تظنوا أن الشيطان حين يغوى الإنسان يأتى له عن طريق شر يضره، بل ربما يلبس هذا الشر لباساً خادعاً ليقع فيه، فاللص مثلا إذا أراد أن يسرقك لا يأتى إليك ويقول لك أنا سأسرق ما فى جيبك، بل ربما دفعك إلى الأرض ثم يتقدم منك ليرفعك من المكان الذى سقطت فيه، وفى هذه اللحظة أنت تظن أنه يعمل خيرا وأنه يعينك على النهوض بعد أن سقطت على الأرض، فى هذه اللحظة يكون هو قد ارتكب الشر وسرق حافظة نقودك، إذن هو غلف عمله الشرير بلباس من الخير ظاهرى، ولكن يأتى إلى شيخ مثلاً، يحمل حقيبة ثقيلة، ويعرض عليه أن يحملها عنه ليعينه حيث إن الشيخ ضعيف لا يقدر على حمل الحقيبة ولكن ماذا يحدث؟ إنه بعد أن يأخذ الحقيبة ليحملها يغافل صاحبها ويهرب بها، عمل ظاهره الخير وحقيقته الشر، وهكذا الشيطان يغريك على مال حرام مثلاً، ويوسوس إليك أنك محتاج لهذا المال وأنك ستأخذه كسلفة وتعيده عندما يتيسر حالك فى القريب العاجل، وتفعل أنت ذلك، وتمد يدك، عمل ظاهره خير لك تفرج به أزمتك وترد المال، ولكنك لا تستطيع أن ترده، بل إنك تحس أن هذه الطريقة سهلة وتمضى فى الطريق إلى المعصية.

فلا تحسب أن الشيطان أبله بحيث يأتى لك بصورة الشر على أنه شر ويذكرك بالعذاب، بل إنه يتسلل لك على أساس أنه خير لك، وإذا كان الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم، فإن الله سبحانه وتعالى قد شاء من رحمته أن يكشف لنا أسلوبه حتى نستطيع أن نقى أنفسنا منه، وأحسن ما يقى الإنسان هو الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم، لأن الشيطان يخلخل فيك منهج الله، فالشيطان لا يتركك أبدا ما دمت أنت على الطاعة ويحاول أن ينفذ إليك من ناحية بعد الأخرى حتى يوقع بك، ولذلك فإن الاستعاذة بالله

من الشيطان الرجيم، تزيدك فهماً للقرآن وإحساساً بآياته، وهذا يقربك من الله[1].

والقرآن الكريم هو عطاء من الله سبحانه وتعالى لعباده، والله في عطائه يساوى بين جميع الخلق، فعطاء القرآن متساو، ولكن كل إنسان يأخذ على قدره، فالقرآن يقرأ والناس تسمع ولكن هل يتقبل الجميع القرآن القبول نفسه؟

لقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٦].

والقرآن هدى ورحمة: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۖ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

فعطاء القرآن واحد ولكن الفرق فيمن يستقبلون القرآن، القلب المؤمن يستقبل عطاء القرآن بشكل مختلف تماماً عن القلب غير المؤمن، الإنسان المتعبد بالقرآن، في نفسه قبول للآيات بينما الإنسان غير العابد لا يفقه شيئاً من القرآن الكريم.

ولكن نوضح هذه النقطة قليلاً، أنت مثلاً عندما تخرج في الشتاء من منزلك، وتجد الجو باردا وتنفخ في يديك حتى تدفئها من البرد، وعندما يأتي لك كوب شاى ساخن، وتريد أن تقلل من سخونته تنفخ فيه، الفعل واحد ولكن متقبل الفعل مختلف، ولذلك مرة قمت بالفعل للتدفئة ومرة قمت بالفعل نفسه للتبريد، ولذلك عندما تقرأ القرآن أو تستمع إليه، لا بد أن تنقى النفس المستقبلة للقرآن وتجعلها صافية، وأحسن صفاء للنفس هو أن تخلصها من الشيطان، وأقوى ما تخلص به نفسك من الشيطان هو أن تقول أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وبذلك تكون قد استعذت بالله وكان الله معك، فإذا صفيت نفسك لاستقبال القرآن، فإن آياته الكريمة تمس قلبك ونفسك، ويكون لك هدى ونوراً، وأنت إذا استعذت بالله من أى شيطان أو أى مكروه فإنك بذلك تجعل الله إلى جانبك، فإبليس من خلق الله وأنت من خلق الله، فإذا واجهتما بعضكما بعضا كانت الغلبة لمن هو أكثر قوة أو أكثر حيلة، ذلك لأن كلا منكما يعتمد على ملكاته الشخصية في مواجهتكما معاً، ولكن إذا استعاذ أحدكما بالله كان الله في جانبه، والشيطان لا يمكن أن يستعيذ بالله أو يستعين به في عمل من الأعمال، إذن فأنت صاحب الميزة لأن الشيطان مطرود من رحمة الله، رجيم ومبعد، فهو إذا استعان استعان بذاتيته أو بما منحه الله من صفات خلقه، ولذلك مهما كانت قدرة الشيطان أو قوته، فإنك إذا استعذت بالله من الشيطان الرجيم

---

(١) روى البخارى [٧١٧١] عن على بن الحسين رضى الله تعالى عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم»، ومسلم [٢١٧٤/ ٢٣]، وأبو داود [٢٤٧١]، وابن ماجه [١٧٧٩]، والترمذى [١١٧٢] عن جابر رضى الله تعالى عنه.

تكون أنت الأقوى ويكون النصر فى جانبك ؛ لأن الله عندما يكون معك فى هذه اللحظات تكون قدرتك وقوتك فوق كل قدرة وأعلى من كل قوة ؛ ولذلك عندما ينفرد الخلق بالخلق تكون الغلبة للقوى.

ولكن عندما يذهب مخلوق إلى خالقه ويستعيذ به ويستعين به يكون هو الأقوى رغم ضعفه، ويكون هو الغالب رغم عدم قدرته، وإذا بعد اثنان من البشر عن الله أصبح كل منهما يعتمد على قوته الذاتية، فإذا استعان أحدهما بالله انقلبت الآية تماماً، ولذلك فعندما تقرأ القرآن لابد أن تصفى جهاز استقبالك، ليس لقدرتك أنت ولا الاستعانة بقوتك، ولكن بقدرة الله.

ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى إن الشيطان سيأتى يوم القيامة ليقول: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وبهذا يكشف لنا الله سبحانه وتعالى سرا آخر عن إبليس، هو أنه ليس له سلطان، أى إن إبليس لا يستطيع أن يقهر أحدا على المعصية ولكنه يغريه، فإذا استجاب سقط، وإذا استعان بالله نجا، والشيطان لا يستطيع أن يقودك إلى الشر رغماً عنك، ولكن باختيارك، بوقوعك فى إغرائه واستجابتك له ؛ لذلك يتم الحساب على ما ترتكبه من المعاصى بإغواء الشيطان، ولو أن إبليس له صفة القهر أو سلطة إخضاع الإنسان دون ما إرادة منه لسقط الحساب، فنحن نعلم أن الحساب لا يتم على أمور جبرية لا يملك الإنسان فيها حق الاختيار، والقهر يسقط الحساب عن البشر، ولكن الذى يتم على أساسه الحساب هو أمر اختيارى تستطيع أن تفعله أو لا تفعله بإرادة منك، وهنا يكون الحساب عدلاً ؛ لأنك أنت الذى اخترت، وهكذا يريد الله سبحانه وتعالى أن ينبهنا إلى نقطة هامة، وهى أن وسوسة الشيطان بالشر ليس فيها القهر، ولكن فيها الاختيار، والله سبحانه وتعالى يعطينا فيها القدرة على أن نختار، وأن نفعل أو لا نفعل، ولذلك وصف الله سبحانه وتعالى كيد الشيطان بأنه ضعيف، لماذا؟ أولا لأن معك قوة الله وقدرة الله تستطيع أن تستفيد بهما، وثانيا لأن الأمر هنا اختبار لا إجبار، فليس هناك قهر، ولو كانت نفسك قوية لاستطعت أن تتغلب عليه، وإبليس لا يستطيع أن يرغمنا على عمل، ولا يملك الحجة الصحيحة لإقناعنا بإثم، ولكن المسألة أنه يتملك النفس الضعيفة ويستطيع أن يغريك أو يوهمك بشىء كاذب، حتى إذا ارتكبته وجدت أن النتيجة غير ما قال، رغم ذلك فإن التهافت على الدنيا والتكالب عليها، يدفعنا إلى ألا ننتبه من الغفلة فيدخل الشيطان حياتنا مرات ومرات.

الاستعاذة بالله من الشيطان

إذا استعذت باسم الله من الشيطان الرجيم، فإنك يجب أن تبدأ باسم الله الرحمن الرحيم ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كل عمل لا يبدأ باسم الله فهو أبتر»[1]، يعني ممحوق البركة، وهذا لا ينطبق على القرآن الكريم وحده، بل على كل عمل يصادفك في حياتك؛ لأنك حين تبدأ باسم الله فإنك تطرد الغرور من قلبك، ذلك أنك كما قلنا يمكن أن تبدأ العمل معتمدا على قوتك الذاتية، وفي هذه الحالة تبدأ والغرور يملؤك بأنك تستطيع أن تحقق ما أنت مقدم على عمله بقوتك الذاتية، فكأنك استغنيت عن الله وابتعدت عنه، ويظل الغرور يملأ قلبك فتُصْدِق الأكذوبة الكبرى في أن الإنسان يستطيع أن يصنع قدره ومستقبله، ولكنك إذا استعذت بالله وبدأت العمل ذاكرا اسم الله سبحانه وتعالى، فأنت في هذه الحالة تتذكر أنك بدون الله غير قادر، وأنه إذا سلب عنك عونه وبركته وقدرته فإنك تصبح عاجزا عن أن تفعل شيئاً، وقرب الإنسان من الله وشعوره بحاجته إليه في كل لحظة وثانية هو الذي يقرب الإنسان من الله، ولقد سئل آل بيت رسول الله لماذا لا تطلبون الغنى، فقالوا نحن قوم نحب أن نجوع فنطلب، ونُعطى فنشكر، وهذه العبارة تحمل رغبة الطلب في دوام الصلة بالله، فالإنسان إذا أحس أنه يستطيع أن يحقق لنفسه ما يريد، إذا أصابته نعمة من الله نسبها لنفسه، وادعى أنه يستطيع أن يحصل على الرزق بقدرته هو.

ولذلك يقول تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ [فصلت: ٥١].

ما معنى هذه الآية الكريمة؟ معناها إذا أنعم الله سبحانه وتعالى عليه بنعمة نسبها لنفسه فأعرض عن الله بدلاً من أن يشكره، لماذا؟ لأنه حقق شيئاً بما أعطاه الله من علم في الأرض.

ونوضح هذه النقطة قليلاً. الإنسان في بداية حياته مثلاً كان يعتمد على الأمطار في الري والزراعة، فإذا نزل المطر رفع يديه للسماء شاكرا لله نعمه، وإذا تأخر المطر رفع يديه إلى السماء طالباً من الله رحمته، كان هذا هو حال الإنسان حتى أنعم الله عليه بشيء

---

(١) روى أحمد في المسند [٢/٣٥٩] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كل كلام أو أمر ذي بال لا يفتح بذكر الله عز وجل فهو أبتر أو قال أقطع». وقال الأرناؤوط: إسناده ضعيف، وروى النسائي في الكبرى [١٠٣٣١] عن الزهري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كل كلام لا يبدأ في أوله بذكر الله فهو أبتر».

من العلم فاستطاع أن يبنى سداً لتُخزَّن خلفه المياه، فإذا سقط المطر كان هناك فائض خلف السد، يستطيع أن يستعين به الإنسان فى أوقات الجفاف، عند هذه اللحظة يحس الإنسان وهما أنه استغنى عن الله، لأنه إذا تأخر المطر ولم تمطر السماء، ذهب وفتح عيون السد ليأخذ منه الماء، وهكذا أنعم الله على الإنسان بأن أعطاه علما يستطيع به أن يقيم سدا ليحجب مياه المطر ويبقيها حتى الموسم القادم، وكان الرد على ذلك أن الإنسان بدلا من أن يشكر الله على العلم الذى أتاحه له ليجعل حياته أيسر، بدلاً من أن يفعل ذلك نأى عن الله سبحانه وتعالى ونسب العمل إلى نفسه ونسبه إلى قدراته هو، وكأنه استغنى عن قدرة الله التى أعطته المطر وأعطته العلم ليبنى السد.

وهكذا فى كل مظاهر التقدم والمدنية، كلما ازداد كشف الله سبحانه وتعالى لآياته فى الأرض للبشر، ليعطيهم حياة أيسر وأفضل، ابتعد هؤلاء الناس عن الله، وبدأوا يتجهون إلى آيات الله فى الأرض ليتخذوها إلها، ونسمع من يقول انتهى عصر الإيمان وبدأ عصر العلم، وكل هذه السفسطة مما يدور على ألسنة الناس فى هذه الأيام.

وبذلك يكون هؤلاء الناس قد نسوا، وعبدوا النعمة، ونقلوا إلى قدراتهم الذاتية ما كشفه الله لهم من آياته فى الأرض.

وحين يبدأ الإنسان قراءة القرآن الكريم، يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، ثم يبدأ باسم الله الرحمن الرحيم، والعمل الذى لا يبدأ باسم الله عمل أبتر؛ أى ليس كاملاً، ليس فى الدنيا وليس فى الآخرة، أى إنه ينطبق عليه قول الله سبحانه وتعالى: ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾ [الحج: ١١] لماذا فى الدنيا؟ لأن عدم ذكر الله يجعلك تعتمد على قوتك الذاتية، أنت هنا لا تستعين بالقادر، وكذا تعتقد أنك ألصق بهذا العمل، رجل ذكى يستطيع أن يصنع قدره، رجل استغنى عن الله، لأنه يبدأ عمله بدون أن يستعين باسم الله، وهنا يكون العمل على قدر طاقتك، والله لا يبارك، والله لا يوفق ما دمت غير مستعين به بل يتركك لذاتك.

وهكذا تخسر الدنيا.. لماذا؟ لأنك إذا بدأت باسم الله كان معك؛ كان الله معك بقدرته وقوته، وكان الله معكَ يفتح لك الطريق، ويذلل لك العقبات ويدلك على الخير، ويحفظك من الشر، وهذا يتم لا بقدرتك أنت البشرية المحدودة؛ ولكن بقدرة الله التى هى بلا قيود، ولا حدود، وهكذا تجد نفسك إذا استعنت بالله تجنى أكثر.. وتحقق أكثر، ولذلك فأنت تخسر فى الدنيا ما تحققه قدرة الله الذى لم تستعن به، والله الذى ليس كمثله شىء، وبذلك تكون قد خسرت الجزء الأكبر من الدنيا، ولم يبق لك فيها إلا قليل تستطيع أن تحققه بذاتك فتجد العناء والتعب و الشقاء، وقد لا تحقق شيئاً، وخسرت الآخرة؛ ولكنك إذا بدأت العمل باسم الله، فإن الله جل جلاله يضع لك وقاية من الإثم ومن كل ما يغضب الله.

عندما تبدأ عملا باسم الله، فإنك لا يمكن أن تبدأ بمعصية، عندما تهم بشرب الخمر ويأتي اسم الله في بالك، تجزع وتخاف وتسرع تاركاً ما كنت تنوى أن تفعله، عندما تهم بسرقة وتتذكر اسم الله، تبتعد نفسك وتبتعد يدك عن المال الحرام، عندما يعرض عليك إنسان رشوة لا تستطيع أن تقول باسم الله، هل يرتشي إنسان وهو يذكر هذا الاسم الكريم تجد نفسك تتردد، ويدك لا تمتد، و تذكرك لاسم الله يذكرك بقوانين الله فلا تأخذ الرشوة وهكذا في كل أمور الدنيا ما دام ذكر الله على لسانك فإنه يمنعك من المعاصي، وذكر الله سد بينك وبين الآثام، إذن فأنت إذا تعودت أن تبدأ أي عمل باسم الله، استحييت أن تبدأ عملاً يغضب الله ؛ لأنك لا تبدأ باسم الله إلا فيما أجازه الله أو أباحه الله، وهكذا أمرنا أن نبدأ بعد الاستعاذة بالله من الشيطان أن نبدأ عملنا باسم الله، ومستعينين بالله ولننظر إلى الرحمة من الحق في قوله تعالى: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾، ولنشرحها شرحاً يقربها إلى الذهن، ولماذا أمرنا الله بأن نبدأ بقولنا: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾؟

من أسرار: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾، أى باسم المعبود، فنحن نذكر الله سبحانه وتعالى، وأنه الخالق الذى نعبده، وعبادة الله تأتى بما أعلمنا به الله سبحانه وتعالى من أوامر بأفعل ونواهٍ بلا تفعل، وإذا أردنا أن نعبد الله فإن الله سبحانه وتعالى قوة وقدرة لا تدركها العقول والأبصار، ومن هنا شاءت رحمته أن يبين لنا الطريق لعبادته، فلو تركنا الله لأنفسنا لاختلفنا ولوضع كل إنسان طريقة لعبادة الله تتفق مع الهوى البشرى، ولرأيت طرقاً متضاربة وأشياء لا تخطر على البال، هذا يشرع لهواه، وهذا يشرع لهواه، وضاعت الحقيقة؛ ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى أرسل الرسل لتبين طريق العبادة للناس. وقال أنا الله وهذه رسلى، وإذا أردت أن تعبدنى وتدخل فى طاعتى، فأنا أريك طريق الهداية، طريق العبادة، وهذا طريق الحق، لماذا؟ لأننا جميعا من خلق الله سبحانه وتعالى وهو لا يميز بين أحد منا، نحن متساوون أمامه، محتاجون لما عنده وهو لا يحتاج لما نملك، لذلك فإن الله سبحانه وتعالى يضع لك طريق الهداية بلا هوى؛ بحيث لا يحمل أحدا ما لا يحمله للآخر، وبحيث لا يختص أحداً بالمحاباة أو التمييز، وكل المناهج البشرية التى توضع يراعى فيها فائدة البشر.. فالإنسان عندما يشرع، يحاول أن يستفيد هو من التشريع، يحاول أن يأخذ منك شيئاً، لكن الله سبحانه وتعالى حينما يشرع فإنه يعطيك ولا يأخذ منك شيئاً، بل يزيدك من فضله، وهكذا نرى أن التشريع البشرى يأخذ من الإنسان، أما التشريع الإلهى فإنه يعطى الإنسان ويزيده، والله يرزق من يشاء بغير حساب.

إذن.. فحين نبدأ باسم الله، يريد الله أن يذكرنا بحقيقتين هامتين؛ أولاهما حق العبادة والشكر، لأنه ما دام الله يعطينا طريق العبادة فى الحياة، وعطاء العبادة فى الدنيا والآخرة، وهو لا يأخذ منا شيئاً، وإنما هو يدلنا على الطريق الذى نزداد به من فضل الله فى الدنيا وفى الآخرة، وكما سبق أن وضحت فإن الله سبحانه وتعالى لا يرسل لنا منهج العبادة فحسب نظريا، وإنما يرسل لنا التطبيق العملى، فيرسل بشرا رسولاً ليبين لنا منهج العبادة، وبشرية الرسول هنا حتمية ليكون من الجنس نفسه؛ حتى لا نجادل ونقول: حملتنا يارب ما فوق طاقة البشر.

يمضى الله سبحانه وتعالى ويقول: ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾؛ وذلك ليذكرنا بحقيقة أخرى هامة، هى أن باب الله سبحانه وتعالى مفتوح دائماً، وأنه إذا كنت قد ارتكبت معصية، أو ضعفت نفسك فى إثم، أو نسيت الله فى لحظة، فإن هذا ليس معناه أن الباب أوصد فى وجهك، بل الله الرحمن الرحيم يقبل التوبة ويغفر الذنوب جميعاً؛ ولهذا إذا

ارتكبت معصية، فإياك أن تستحي من أن تعود إلى الله وأن تبدأ ﴿ بِسْمِ اللَّهِ ﴾، لماذا؟ لأن الله سبحانه وتعالى لا يعرف الحقد، ولا يتغير على خلقه، فالإنسان عندما تعصيه أو تخالف أوامره قد ينفض يده عنك، وقد ينهى علاقته بك إلى الأبد، وفى كثير من الأحيان يسعى للإضرار بك، ولكن الله سبحانه وتعالى إذا عصيته عن ضعف أو نسيان أو زلة، دونما استكبار أو إصرار، فإنه يفتح بابه لك، فإذا قلت: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ وعدت إليه، وجدته رحمانا رحيما، وجدته يغفر لك المعصية ويزيل عنك الذنب ويطهرك؛ لتبدأ من جديد على طريق الله، إذن.. ﴿ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾، حيثيات إقبال العاصى على أن يعود ويبدأ عمله ﴿ بِسْمِ اللَّهِ ﴾، حيثيات من الله سبحانه وتعالى، والذى يريد أن يذكرنا فى كل لحظة بأن باب الرحمة مفتوح، والله سبحانه وتعالى حين شرع عقوبة أى معصية، معناها أنه أذن لها أن تقع، فلو لم يكن علم الله سبحانه وتعالى بأن هذه المعصية ستقع، ما شرع لها العقوبة، وكما شرع العقاب، شرع التوبة ووضع اسم ﴿ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾، اشتقها من الرحم وهو مكان الجنين فى البطن، ولا يوجد من هو أكثر مغفرة فى الدنيا من الأم بالنسبة لولدها، فالولد قد يخطئ، ولكن قلب الأم هو دائماً غفور لهذه الخطايا، ولا تجد أماً مهما بلغت من خلق سيئ أو جحد للنعمة أو قلب قاس، لا تجد أماً مهما كان فيها من الخصال لا تغفر لابنها إساءاته وعصيانه والله سبحانه وتعالى كلما أعطانا شيئا غيبيا، وأراد أن يقرب هذا الشىء الغيبى إلى مفهومنا البشرى، أعطانا مثلاً نراه فى حياتنا حتى تستطيع القلوب أن تستوعب، والعقول أن تعى، ولذلك حين أراد أن يرحمنا برحمته، اتخذ الأم وابنها مثلا للمغفرة حتى نعرف أن رحمة الله بلا حدود.

إذن.. فكلمة رحمٰن وكلمة رحيم مشتقة من الرحم الذى يعطى الجنين كل ما يحتاج إليه ليأخذ منه كل ما يريد بلا مقابل. فالرحم يعطى للجنين الغذاء، ويعطيه كل وسائل الراحة ولا تأخذ الأم من الجنين شيئاً، فهو يأكل من طعامها ويتغذى من دمها، ويحصل على كل احتياجاته من جسدها، وقد يكون على حساب احتياجات الأم نفسها، فتضعف هى ويقوى هو، والمهم أن الرحم هو مكان العطاء للطفل بلا مقابل، والله سبحانه وتعالى يريد أن يذكرنا أن قلب الأم مغفرة بلا حدود، وأن رحم الأم هو المكان الذى ينمو فيه الجنين بعطاء بلا حدود، علنا بعد ذلك نقترب بأذهاننا من معنى كلمة الرحمن الرحيم، والله غنى عنا جميعاً، وما دام غير محتاج إلينا فهو يعطينا بلا مقابل، والله غفور رحيم، رحمته لا تعرف الحقد ولا الضغينة ولا الأنانية، فسبحانه وتعالى رحمته بلا حدود ولا قيود، وكلنا فى حياتنا نعيش طامعين فى رحمة الله سبحانه وتعالى، نخطئ ونعود إلى حظيرة الله ونضعف فيقوينا الإيمان لنتغلب على ضعفنا، فإذا كنت عاصيا فإن الله سبحانه وتعالى يقول لك لا تستحى أن تهتف باسمى، فإننى قد فتحت لك

من أبواب الرحمة ما يسع ذنوبك جميعاً، وعندما تهتف باسمى حين تبدأ العمل، فأنت تمنع عنك غرور النفس، ولذلك إذا لم تقدر على العمل بذاتك، فإننى أعينك عليه بتسخير الأشياء لك فتزداد قدرة على قدرة، وتحصل على ثواب الدنيا والآخرة.

وبعض الناس فى هذه النقطة يثير جدلاً حول صفة الرحمة فى الله سبحانه وتعالى فيقول إنه يأتى بها مرة بصيغة القوة والضعف، والكثرة والقلة، فإذا قيل رحمٰن تصبح مبالغة وإذا قيل رحيم تصبح مبالغة، وإذا قيل راحم فلا مبالغة، ونحن نقول إن صفات الله سبحانه وتعالى لا تتأرجح بين القوة والضعف، فمرة يكون راحماً، ومرة يكون رحماناً، ومرة يكون رحيماً، وصيغ المبالغة لا تأتى إلا فى الشىء المتغير.

الله سبحانه وتعالى لا يتبدل ولا يتغير ولكن الذى يحدث فى التغيير أن متعلقات هذه الصفة التى تكثر وتقل، أنت تقول إن فلانا أكل، أى: إنه تناول طعاما عاديا كسائر البشر ثم تقول: أكول، أى: إنه يتناول من الطعام أضعاف ما يتناوله البشر، فإذا كان الإنسان يتناول رغيفا فى الطعام، فإن هذا الشخص الأكول يتناول ثلاثة أو أربعة أرغفة، فإذا كان يأكل الأرغفة العادية نفسها، ولكنه يتناول الطعام عشر مرات فى اليوم فتكون المبالغة منا فى تكرار الحدث، ويأكل فى كل وجبة رغيفا مثلا، و لكنه يكرر ذلك عشر مرات فى اليوم، فهو أكول، إذن فالمبالغة تأتى من تكرار شىء عادى، ومن خروج الشىء عن المألوف، ثم يأتى الله سبحانه وتعالى فيقول: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]، ويقول: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، حينما نأتى إلى هذه الآية الكريمة: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ نجد هنا صيغ المبالغة – وقد يتبادر إلى بعض الأذهان مثل المستشرقين مثلاً – أن الله سبحانه وتعالى، وقد نفى عن نفسه المبالغة فى الظلم فقال: ﴿بِظَلَّٰمٍ﴾. لم ينف عن نفسه صيغة الظلم، ويضيف الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ – فهو فى هذه الآية قد نفى عن نفسه الظلم تماماً. ولكنه فى الآية الأولى نفى المبالغة فى الظلم، نقول له إنك لم تفهم معنى الآيتين الكريمتين، الآية الأولى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ﴾ أقال الله سبحانه وتعالى للعبد، أم ﴿لِّلْعَبِيدِ﴾، لو أن الله سبحانه وتعالى استخدم كلمة العبد بدلاً من استخدامه كلمة: «العبيد»، لقلنا إن الله قد نفى صفة المبالغة فى الظلم عن نفسه، ولكنه ترك صفة الظلم – ولكن قوله سبحانه وتعالى: ﴿لِّلْعَبِيدِ﴾، معناه أن الحدث هنا متكرر، فلو أن الله لا يبالغ فى الظلم.. ولكنه يظلم كل فرد من عباده مقدار ذرة – لكان بذلك تبارك وتعالى: ﴿بِظَلَّٰمٍ﴾، لماذا؟ لأنه كما قلنا تكرر الحدث مرات، ومن هنا تأتى صيغة المبالغة مهما كان الحدث ضعيفا؛ لأن المبالغة هنا لا تأتى من الحدث نفسه، ولكنها تأتى من التكرار.

ومن هنا إذا ظلم الله كل إنسان ذرة، فإن تكرار الحدث مع هذا العدد الهائل يصبح من صيغ المبالغة، ولذلك يريد الله سبحانه وتعالى أن ينفى هنا أنه يظلم أحدا من عباده ولو مقدار ذرة؛ لذلك فهو يقول: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾، أى: إنه لا يظلم إنساناً ولو

ذرة واحدة، ولذلك استخدم الله سبحانه وتعالى هنا صيغة المبالغة، لماذا؟ لأن متعلقات الصفة مجموع هائل من البشر، ولكن قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾، هنا جاءت بصيغة الفرد، فكان نفى الظلم بصيغة المبالغة.

لذلك فإن استخدام الله سبحانه وتعالى للفظ «ظالم» ولفظ «ظلام»، ليس معناه أن تتغير علوا و ضعفا ؛ لأن الكمال لله سبحانه وتعالى، ولكن معناه أن الذى يتغير هو متعلقات الصفة، فإذا أراد الله سبحانه وتعالى أن ينفى وقوع أى ظلم على عبيده الذين هو قادر عليهم جميعا، فيجب فى هذه الحالة أن تتناسب الصفة مع العدد الذى يقدر عليه الله وهو كل خلقه، ولذلك يجب أن تنفى بصيغة المبالغة ؛ لأن الله سبحانه وتعالى لو أصاب عباده كل مجموع بذرة واحدة من الظلم لكن ظلاّماً، والله سبحانه وتعالى ينفى هنا حتى مجرد مظنة الظلم.

فعندما يأتى الله سبحانه وتعالى ويقول: راحم ورحيم، فتلك تتعلق بصفات الرحمة، فهو فى الدنيا يرحم المؤمن والكافر، فيسخر ما خلقه للبشر جميعا، فالشمس حين تعطى أشعتها لا تفرق بين مؤمن وكافر، بل هى تعطيها للجميع عطاء ربوبية، والأرض حينما تنفعل وتخرج لك الزرع، هى لا تفرق بين المؤمن والكافر ؛ ولذلك فهى تعطيهما عطاء متساوياً، فلا تقول هذا مؤمن يقوم بزراعتى فسأعطيه الثمر، وهذا كافر سأحرمه من ثمره، أو تقول هذا مؤمن سأعطيه أضعاف هذا الكافر، ولكنها تنفعل للاثنين معاً، وباب الرحمة والتوبة مفتوح فى الدنيا للعاصى.

إذن.. فصيغة الرحمة هنا لابد أن تكون بصيغة المبالغة ؛ لأنها تشمل الخلق كلهم، المؤمن منهم والكافر، العاصى منهم والمطيع، ولكن إذا أتينا للآخرة مثلاً، نجد أن الله يطرد من رحمته العاصين والكافرين، ولا تشمل رحمته إلا عباده المؤمنين، هنا فى هذه الحالة قلت متعلقات صفة الرحمة، وإن كانت الصفة نفسها لم تتغير ولم تتبدل، هكذا فى كل صفات الله جل جلاله، كلما شملت الصفة عددا هائلا جاءت بصيغة المبالغة فإذا كانت متعلقات الصفة عددا محدودا فلا مبالغة، والصفة لا تتغير ولكن متعلقاتها.

والحق عز وجل طلب منا حين نبدأ فى قراءة القرآن وفى كل عمل، أن نبدأه بـ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، بسم الله الذى سخر لنا الأشياء، ولولا تسخيرها لنا لما استطعنا أن نسخرها لأنفسنا، وإذا كان بعض الناس لا يفطن إلى تسخير الله لما فى الكون فالله سبحانه وتعالى يريد أن يذكرنا بذلك دائما حتى لا ننسى، ولكن لماذا ننسى؟ لأن رتابة الأشياء تجعلنا نحس أنها حق مكتسب لنا فى الحياة، فالشمس تشرق كل صباح، ولكن من منا يفكر وقت شروق الشمس أن الله سخرها لنا من سبل الحياة فى الكون، الشمس تشرق كل يوم، ولا نحس أن ذلك إلا من رتابة الكون ونظامه دونما أى تفكير.

إن الإنسان إذا فكر فى أن هذه الشمس التى تشرق كل صباح هى نعمة من نعم الله

التى سخرها لعباده، وأنه لا أحد يستطيع أن يسخر الشمس للخلق إلا الله سبحانه وتعالى، ما وجد فى الدنيا كافر، لأن الشمس تشرق كل يوم بإذن ربها، لتذكره بنعمة الله عليه وتسخيرها له، وكذلك القمر، وكذلك النجوم، وكذلك الأرض، وكل ما تعطى من عطاء للبشر، الأرض التى ذللها الله سبحانه وتعالى للإنسان - وكذلك الأنعام التى تدر لنا الألبان، ونستخدمها فى أشياء كثيرة، ولكن الإنسان ينسى هذا، فإذا ركب الطفل الصغير حصاناً أو جملاً فإننا نقول إن الطفل يقود الجمل، وذلك ما يقال فى الدنيا جوازا، ولكن الحقيقة أن الله سبحانه وتعالى قد ذلل الحصان أو الجمل للإنسان، فاستطاع هذا الطفل أن يقوده، ذلك أن هذا الحصان أو هذا الجمل، هو أقوى من الطفل عشرات المرات ويستطيع-أن يتغلب عليه أو يفتك به، ولكنك تجده مع ذلك طائعا ذليلا للإنسان، وهذه الطاعة ليست للبشر، وإنما لأمر الله فى التسخير للبشر، فهذا الجمل لا يخضع للطفل الصغير خوفا منه، ولا عن عدم قدرة، ولكنه يخضع له لأن الله أمره أن يخضع.

ولذلك فالله سبحانه وتعالى أراد أن يلفتنا إلى هذه النعمة فى الكون، فجاء ببعض الحيوانات التى خلقها، ولم يجعلها مذللة للإنسان بل تركها غير مسخرة له، جاء الله فى الكون بعدد هائل من هذه الحيوانات أخضعها للبشر وذللها لهم، وبعدد قليل منها لم يذلله مثل الثعبان أو العقرب، والحيوانات المفترسة التى يخشاها الناس ويهابونها لأنها تلحق الفرد منهم، ورغم مرور مئات الألوف من السنين، وربما ملايين السنين فإن هذه الحيوانات ظلت لا تخضع لبشر، ولا يستطيع إنسان أن يستأنسها أو يستخدمها، فلا نجد إنساناً مثلاً يستطيع أن يستخدم الأسد فى جر المحراث، أو يستطيع أن يستخدم النمر فى دوران الساقية رغم أنهما أقوى من البقر، لماذا؟ حتى إذا جاء إنسان وحاول وقال: أنا سخرت هذا واستخدمته لنفسى وذللته، فإننا نقول له إذا كنت قد فعلت ذلك، فذلل لنا العقرب وأبعد عنا سمها. وذلل لنا الثعبان أو الأسد أو النمر إلى غير ذلك من الحيوانات المفترسة غير المذللة للبشر، حينئذ سيعجز تماما، إذا أنت لم تستطع أن تذلل العقرب على ضآلة شأنه، والثعبان على صغر حجمه فكيف تستطيع أن تذلل الجمل أو الحصان على قوتهما وكبر حجمها وقدرتهما على الفتك بك، إنك لم تذللهما، ولكن الله سبحانه وتعالى هو الذى سخرهما لك.

لكن بعض الناس يثيرون هنا نقطة هامة، فالحيوانات المفترسة يأتون بها إلى السيرك، ويقوم الإنسان بواسطة الكرباج أو التخويف بتدريبها بحيث تطيعه، أفلا يعتبر هذا تذليلا، نقول لهؤلاء، لا، لا يعتبر تذليلا لأن هذه الحالة فردية تتوقف على مهارة المدرب وموهبته وقدرته على إخضاعه الأسد الذى أمامه فقط، وفى كثير من الأحيان يقوم بافتراس مدربه، ولكن هل يستطيع المدرب أن ينقل هذا إلى جنس الأسد عامة، وهل استئناس هذا الأسد إن كان يصح أن يقال إن هذا استئناس، هل ينتقل هذا الاستئناس إلى ذرية الأسد

بحيث تولد خاضعة للبشر، الجواب طبعا لا، إذن لا هو استئناس للجنس على إطلاقه، ولا هو استئناس ينتقل إلى ذريته بحيث تولد هذه الذرية خاضعة، ولكنه حالة فردية لا يمكن القياس عليها، وكما قلت في أحيان كثيرة، قد يفترس الأسد مدربه، وبهذا ينهدم القول بالاستئناس، إذن كل ما يحدث بالنسبة لاستئناس حيوانات مفترسة، هو حالات فردية تتوقف على مهارة المدرب، فإذا فقد المدرب مهارته أو غفل عنها لحظة افترسه الأسد أو النمر، ولكن الله سبحانه وتعالى قد أطلق لنا الحيوانات على إطلاقها ؛ فكل بقرة تولد ذلولا وكل جمل يأتي إلى هذه الدنيا، هو خاضع للبشر مذلل له، وكل حصان يستطيع الطفل الصغير إذا دربته أن يقوده، وهذه ليست حالات فردية ولكنها عامة، تخضع لعموم التكليف - وتنتقل وراثيا من الأب والأم إلى الجنس كله، وهذا هو التذليل الحقيقي والتسخير الذي يحمل آية من آيات الله للبشر.

وحين نقول: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ﴾ نستعين بالذي سخر لنا كل شيء في هذه الدنيا وأخضعه لنا، ولكن الإنسان لا ينتبه للخطر ولا يحس بالنعمة إلا ساعة تخرج حياته عن المألوف، فأنت ما دمت تتمتع بالصحة لا تشعر أنك تتمتع بشيء، إنك تأخذ هذه النعمة على أساس المألوف، فهناك ألفة بينك وبين الصحة والعافية تجعلك لا تحس بقيمتها، فإذا اعتلت صحتك أو مرضت، في هذه اللحظة تعرف معنى النعمة، وتتنبه إلى ما أعطاه الله لك، إنك لا تحس بنعمة البصر إلا إذا حدث شيء أخرج هذا البصر عن مألوف عمله، فأصبحت لا ترى كالمعتاد، أنت لا تحس بقلبك إلا إذا مرض واختل، وبأذنيك إلا إذا أصاب سمعك شيء، وبيديك إلا إذا وجدت صعوبة في أن تستخدمهما، وبقدميك إلا إذا فقدت القدرة على المشي، حينئذ فقط تحس، والإنسان يكون في حياته أقرب إلى الله حين يمرض، ذلك أنه في تلك اللحظة التي غادرت فيها العافية جسده، أحس بنعمة الله، وكلمة: «آه» التي يقولها الإنسان حين يتألم، كلمة فطرية يفزع بها الإنسان إلى خالقه لأنه هو الذي وهب، وهو الذي يستطيع أن يشفي، فإذا ما استرد الإنسان صحته استرد معها انعدام الإحساس بالنعمة، فبقاء النعمة يجعلنا ننساها، ولكن خروجها عن المألوف يجعلنا نحس بها، ولذلك لولا تلك الأحداث والأزمات التي تمر بنا، لكان الكثير منا في حياته لا يحس بنعم الله عليه، والله سبحانه وتعالى كما وضع فيما سخره لنا من مخلوقات، وضع فيها الدليل على نعمته مثلما تناولناه حول الحيوانات التي أخضعها الله للإنسان والتي لم يخضعها، كذلك وضع في البشر أشياء تذكره بالنعمة، ولقد وضع الله هذه الأشياء بأعداد قليلة، وأعطى أصحابها ما يعوضهم عما فقدوه، فمثلا نأتي إلى قرية تعدادها عشرة آلاف شخص، فنجد عشرة أو أكثر من ذلك قليلا من المكفوفين، وبعض الناس قد فقد عينيه أو إحدى قدميه أو ما شابه هذا، شواذ في الوجود، وقلة القليل في الخلق، ولكن الله سبحانه وتعالى قد وضعها ليذكرنا بنعمه علينا، حتى لا نقول إن هذا الوجود وجود

آلى، أو ميكانيكى، وإننى حين خلقت سليما معافى قد حققت ذلك بذاتى، فيوجد الله فى القرية رجلا فاقد البصر ليقول لى أنت لم تحقق لذاتك نعمة البصر، وإنما أنا الذى حققتها لك، وإذا نسيت فإن هذا يذكرك، وإذا اعتقدت أنك أنت الذى أوجدت القدمين السليمتين والساعدين القويين فالله يذكرك بأن هذه النعمة من نعم الله سبحانه وتعالى عليك، وفى الوقت نفسه فإن الإنسان الذى فقد جزءا من نعمة الله بالسمع، أو بالبصر، أو بالحركة، يُوجد له الله من يقوده فى حركته فى الحياة، ومَنْ يعوضه عن هذا العجز، فالضرير مثلاً أو فاقد البصر، يعطيه الله ذاكرة لا تخطئ، ويعطيه فوق ذلك عطفا من البشر لا يحصل عليه إنسان سليم معافى، وييسر له من الأمور ما تعلمه أنت وما لا تعلمه، والمهم فى هذا كله أن الله يجعل حياة مثل هذا الشخص ميسرة، بالقدر الذى يعوضه عما فقد.

وهكذا يأتى فقدان أى إنسان لنعمة من النعم تذكرة لباقى نعم الله سبحانه وتعالى، تلك النعم التى يأخذها كل إنسان على أنها حق مكتسب ولا ينتبه إليها، ولذلك تأتى لفتة من الله يرى فيها الإنسان شخصا آخر فاقدا لهذه النعمة فيتذكر فضل الله عليه، والأشياء الموجودة فى الكون والتى تخرج عن مألوف الخلق هى وسائل إيضاح لنعم الله سبحانه وتعالى يهز الإنسان من داخله، ولقد رأينا ونرى كل يوم نوابغ فى كل علم، من أولئكالذين حرمهم الله نعمة من النعم، فلكل واحد من هؤلاء نبوغ لا يتوافر لغيره، وناحية يتميز بها فى عبقرية من نوع معين، فأكثر الناس قدرة على حفظ ما يسمعون هم الذين فقدوا أبصارهم، وعدد من المصابين بعاهات مثل شلل الأطفال وصلوا إلى مناصب رؤساء دول، وشيخ الاقتصاد الذى أنقذ ألمانيا بعد الحرب، كانت رجلاه قصيرتين بشكل يلفت النظر.

وإذا تأملنا فى أشياء كثيرة فى الكون، نجد أن الله سبحانه وتعالى قد أخضع الأقوى للأضعف بقدرته - فمثل الطفل و الجمل و الحصان يعطينا صورة لذلك - ومثل العقول الإلكترونية التى تفوق قدرة العقول الإنسانية فيعدد من العمليات الحسابية. نقول إن الله سبحانه وتعالى قد أخضع هذا الكشف للعقل البشرى ؛ ليدلنا على أن الكشف العملى هو من الله سبحانه وتعالى، فلذلك يسر لعقل البشر أن يخترع آلة تفوقه فى الدقة.

إذن.. فعدل السماء مطلق فيما أعطاه الله للإنسان، ولكل واحد منا نقطة يتميز بها عن غيره من البشر، ونعم الكون سواء كانت من خلق الله، أو مما كشفه الله من علم للعقل البشرى كلها تحمل الدليل على أن الله سبحانه وتعالى هو الذى خلق، وهو الذى أعطى، ولو كان العطاء عطاءً بشريا لاستطاع البشر أنفسهم أن يخضعوا تلك النسبة القليلة من الشواذ للإطار العام للخلق، ولذلك إذا كان للكون نظامه العام الذى يألفه الإنسان حتى يعتقد زيفا أنه ليس وراء هذا الوجود خالق أو مدبر، يأتى الله سبحانه وتعالى ليخرج أشياء بسيطة عن النظام العام، لتذكر الخلق بالخالق.

ومن رحمة الله أن يحدث هذا بنسبة تافهة لا تذكر، ولكنه تذكير للقدرة الإلهية، وأن هذا الكون ليس موجودا تلقائيا، فالكون لا يخضع لأحد أبدا إلا لخالقه، فعندما تبدأ العمل ﴿ بِسْمِ اللَّهِ ﴾ فإنك تجعل قدرات الله معك فلا تخشى شيئا، ولا تخاف أحدا، وحين نستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، نستعيذ بالخالق من خلقه، وهنا لا يقوى الشيطان ولا يجرؤ في أن تكون له مواجهة، فما دمت في معية الله، فلا يجرؤ إبليس أن يذهب إليك.

ولعل في قصة الغار الذي التجأ إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما هاجر إلى المدينة التجأ هو وأبو بكر رضي الله تعالى عنه إلى غار ثور واختبأ داخله، وجاء الكفار ووقفوا عند مدخل الغار، وملأ الخوف قلب أبي بكر من أن يقع رسول الله صلى الله عليه وسلم في أيدي الكفار، وقال: لو نظر أحدهم تحت قدميه لشاهدنا، وكان أبو بكر بذلك يقرر واقعا فالكفار واقفون عند مدخل الغار، والنبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رضي الله تعالى عنه في داخله، ونظرة واحدة من الكفار داخل الغار تفضح الأمر كله، فماذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ رفع الأمر إلى الله، وقال لأبي بكر: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما»[1]، وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة: ٤٠]

إذن.. فرسول الله صلى الله عليه وسلم رفع الأمر إلى الله سبحانه وتعالى، وهو وأبو بكر في معية الله، وأصبح هنا قول أبي بكر «لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا»، هو قول يعتمد على الذاتية البشرية. ولكن قول الرسول صلى الله عليه وسلم: ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾، معناه أنه بقدرة البشر، أنهم لو نظروا تحت أقدامهم لرأونا، ولكننا ما دمنا قد رفعنا الأمر إلى قدرة الله سبحانه وتعالى فإنهم لن يرونا، ذلك لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي سيحفظنا، ذلك لأن قدرة الله سبحانه وتعالى ستزيغ أبصارهم فلن يرونا، وحتى لو نظروا تحت أقدامهم فلن يرونا، ذلك لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي يحفظنا، فنحن لا نحفظ أنفسنا، وهكذا جاءت هذه الآية لتبين لنا، كيف أن الله سبحانه وتعالى إذا كان معنا كانت لنا الغلبة، وإننا يجب أن نستعين بالله في جميع الأمور، وتنطبق الحكمة نفسها على تنزيل القرآن وهو ما سبق أن ذكرناه بالتفصيل، فمحمد صلى الله عليه وسلم حين قال ما أنا بقارئ كان يتخذ الأسباب، والله سبحانه وتعالى حين قال له: ﴿ اقْرَأْ ﴾، كان يقول له أنا لا أريدك أن تقرأ بالأسباب ولا بما تعلمته، ولكن ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ [العلق: ١]، وهنا نقل القدرة إلى الله سبحانه وتعالى الذي ليس لقدرته حدود ولا قيود، فكأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يقول لرسول الله أنا لا أريدك أن تقرأ بما تعلمته من البشر، ولكنك ستقرأ بما ستتعلمه من خالق البشر الذي إذا أراد أن يقول للشيء ﴿ كُنْ ﴾ فيكون، والله تبارك وتعالى يخبرنا في

(١) رواه البخاري [٣٦٥٣]، ومسلم [٢٣٨١]، والترمذي [٢٠٩٦] عن أبي بكر رضي الله تعالى عنه.

سورة الكهف، أن الاعتراف بفضل الله، هو للتعليم، فيقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ﴾، والقول هنا أنه حينما دخل جنته أو حديقته ووجدها مثمرة يملؤها الثمر، مخضرة جميلة، في هذه اللحظة اغتر بقوته أو بعلمه، وساعة حدث هذا الغرور ظلم الإنسان نفسه، لماذا؟ لأنه نسب إليها الفعل بدون أن يذكر قوة الله، وحين يحدث يتخلى الله عن هذا الإنسان، ويتركه لذاته، ليضيع في الدنيا ولذلك فهو ظلم نفسه لأنه جردها من عون الله لها، ورمى كل الثقل عليها.

وتمضي السورة الكريمة إلى قول الله سبحانه وتعالى ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ۝ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ۝ ﴾ [الكهف].

وهنا يكون قد أدخل نفسه مدخل الشيطان الذي دخله لآدم، استزله الشيطان بأن قال له: ﴿ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾ [طه: ١٢٠]، وهذا الإنسان وسوست له نفسه بأن هذه الجنة لن تبيد، أي لن تنتهي وتذهب، أي إنها ملك لا يبلى، وأضاف ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً ﴾ وهكذا أعطى لنفسه الخلد من أن الساعة لن تأتي، وأنه سيظل خالدا هو وحديقته هذه، فبماذا رد عليه الإنسان المؤمن؟

ردد قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ [الكهف: ٣٩].

إذن.. فقد غاب عليه أنه في هذه اللحظة التي يتمتع فيها بمثل هذه النعم نسي الله، فنسب الشيء إلى نفسه، وقال له: لولا أن قلت وأنت تدخل هذه الجنة: ما شاء الله وأنه لا قوة إلا بالله، فلا تنسب القوة إلى نفسك، حينئذ ماذا حدث، ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ ﴾ [الكهف: ٤٢] فانتهت الحديقة وأصبحت خرابا.

﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ۝ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ۝ ﴾ [الكهف].

في اللحظة التي نسي فيها الله؛ تخلى الله سبحانه وتعالى عنه، وتركه لقدراته فهلكت الحديقة وذهب عنها الماء وانتهت الخضرة وضاع الثمر، وأصبحت خاوية، وتركه الله ليصلحها بقدراته هو ومن معه دونما عون من الله سبحانه وتعالى، ولكنه لم يجد من ينصره من دون الله، ولو أنه رفع الأمر إلى قدرة الله لبارك الله له في رزقه وفي زرعه.

إذن.. القصص في القرآن الكريم لا يتناول أشخاصا بذواتهم، أي إن هذه القصص وكل قصص القرآن الكريم، إنما هي عبرة عامة وموعظة تتكرر في كل عصر، ما عدا قصة مريم عليها السلام، ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى لم يذكر أبطال هذه القصص بأسمائهم الكاملة لتعرف أشخاصهم، بل اكتفى باسم واحد عام، ففرعون مثلا هو كل شخص يريد أن يجعل من نفسه إلها يعبد في الأرض، وذو القرنين مثلا هو مَنْ يريد إصلاحا في

الأرض، وصاحب الجنة فى سورة الكهف هو كل مَنْ ينسى الله وينسب الفضل إلى نفسه، ولذلك فإننا نعيب على بعض الناس فى البحث عن مَنْ هو فرعون موسى، أو مَنْ هو ذو القرنين، ونحن نقول: إن الهدف ليس الشخص ولكنه العبرة و العظة، ولذلك عندما جاء الله سبحانه وتعالى إلى سورة مريم عليها السلام، قال مريم ابنة عمران، ولم يقل مريم فقط لماذا؟ لأنه فى هذه الحالة المقصود مريم ابنة عمران بالذات، وأن هذه القصة لن تحدث لغيرها، كذلك المقصود بقصة عيسى عليه السلام، هو عيسى ابن مريم بالذات، وليس أى إنسان آخر، فمن اختصه القرآن بقصة تتعلق بذاته هو عيسى ابن مريم، ومريم ابنة عمران، أما باقى قصص القرآن فالذى يجب أن نستخلصه منه هو العبرة والعظة بدون أن نتعب أنفسنا فى البحث عن علم لا ينفع، أو جهل لا يضر، فما الذى يتغير فى قصة موسى عليه السلام إذا عرفنا أن فرعون موسى هو رمسيس الأول أو رمسيس الثانى أو رمسيس الثالث، ليس هذا هو المهم.

ولكن المهم أن تعرف العظة، مما يتعرض له أى إنسان ينصب نفسه إلها من دون الله فى الأرض، وما يتعرض له الذين يتبعونه بغير علم، ولا نضيع الوقت فى معرفة أصحاب هذه القصص فى التاريخ.

وحين يُقرأ القرآن الكريم من أى قارئ، يجب أن يتصور المؤمن أنه يسمع الله يتكلم، ويلغى المتكلم الوسيط، ولذلك حين نقول باسم الله أو نبدأ أعمالنا بـ ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾، لابد أن ننسب الكلام إلى المتكلم، فأنت حين يأتى إليك إنسان فى أمر من الأمور ويريد منك تنفيذه، فسألته باسم من تتكلم، فنجد أنه إذا كان عاديا قال باسم وكيل النيابة، أو باسم وزير الداخلية مثلاً، ثم إذا ارتقى المتكلم عندما ينسب الكلام إلى المصدر الذى يعطيه القوة، فإذا قلت: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ﴾ نسبت الفضل له، ومن الذى يعطيك فى هذه الحالة القوة، إنه الله الذى ليس كمثله شىء، والذى يقول للشىء ﴿ كُن ﴾ فيكون.

عندما تبدأ قراءة القرآن، فإنك تستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، ثم تبدأ القراءة بـ ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾، وحين تبدأ أى شىء بـ ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ﴾ فإنك تنقل الأمر من قدرتك إلى قدرة الله، فيكون الله سبحانه وتعالى يسخر ما لا تستطيع تسخيره، وييسر لك الأمر، ويبارك لك فيما تفعل، فأنت إذا كنت فلاحا وذهبت لتحرث الأرض لتعطى لك الزرع، فلابد أن تتذكر أولا أنك لم تخلق الأرض، ولا خلقت عنصرا من عناصرها، وأنت لم تخلق البذرة التى وضعتها فى الأرض، فهذه من خلق الله، جاء الإنسان إلى الدنيا فوجد الله سبحانه وتعالى قد أعدها له، وأنت لم تخلق المياه التى نزلت من السماء، ولم تنزلها فى هذه البقعة بالذات، والدليل على ذلك أن العالم ملىء بالصحارى، بينما مناطق أخرى تصيبها الفيضانات من كثرة الأمطار، ولو كنت الذى فعلت

هذا لاستطعت أن تروى الصحراء، وأن توجد البحار والأنهار، ولكنك لم تستطع وكل ما يقال مخالفا لذلك هو ظن، وليس علما ولا حقيقة، فلا أنت خلقت البذرة، ولا أنت أنزلت المياه، كل ما فى الأمر، أنت أعملت فكرك المخلوق من الله فى المادة المخلوقة من الله، وبالطاقة المخلوقة من الله.

إذن.. فعلمك هنا محدود، محدود، ولذلك حين تقبل على الزراعة، إذا لم تبدأ بـ ﴿ بِسْمِ اقْرَ ﴾، لنسبت الفضل إلى غيره، وبالله عليك لو أنك لم تبدأ بـ ﴿ بِسْمِ اقْرَ ﴾، فباسم من تبدأ، باسمك أنت، وأنت لا قدرة لك على خلق الأرض، ولا إنزال المطر، ولا إيجاد البذرة، لا قدرة لك على أن ترغم الأرض أن تنبت، ولا أن تخلق أرضا غير تلك التى خلقها الله لتزرعها، ولا أنت تستطيع أن تخلق البذرة من عدم، ولا أن تنزل الماء، فما هى قدرتك التى تبدأ بها، وأى قدرة تلك التى تدفعك أن تستغنى عن الله سبحانه وتعالى لتنسب الفضل لنفسك، لا توجد قدرة إنسانية تستطيع أن ترغم عملا من الأعمال فى الدنيا على أن ينفعل بها، هناك أشياء سخرها الله لك، وأشياء أخرى لم يسخرها الله للإنسان، وما سخره الله لك يخدمك بدون جهد منك، وأحيانا بجهد ضئيل حتى تستمر الحياة والعمل.

وفى الدنيا أشياء كثيرة لا تدخل فى قدرتى وقدرتك، ولا فى طاعتى وطاعتك، فالشمس لا يستطيع أحد أن يأمرها أن تطلع أو تغيب حسبما يريد، و القمر لا ينفعل بأوامر أهل الأرض أن يظهر أو لا يظهر، و السحاب يمشى حيث يشاء الله لينزل المطر حيث يريد، والهواء موجود فى الأرض سواء قلت له استمر أو طلبت منه أن يختفى. هذه الأشياء كلها سخرها الله سبحانه وتعالى لك، فأنت حين تبدأ بـ ﴿ بِسْمِ اقْرَ ﴾، باسم الخالق الذى سخر لك كل هذا، وما كنت تقدر أنت بقدراتك على أن تسخرها، أنت فى هذه الحالة تبدأ باسم الذى جعل هذه الأشياء تنفعل لك، وأحيانا تنزل إلى المنفعل لك فلا تجد قدرة لك عليه، والأرض تنفعل لك لأن الله قد سخرها، ولكن فى بعض الأحيان ورغم التكنولوجيا الحديثة لا تنفعل لك، دول كبرى متقدمة تنظر إلى علمها وإلى تخلفنا فى العلم بحسد شديد، وتقول إنها تقدمت وفعلت كذا وكذا، ثم بعد ذلك نفاجأ بنقص شديد فى أحد محاصيلها الزراعية، وهذا يحدث ونسمع عنه من حين وآخر، وعندئذ نتسائل، برغم العلم والتقدم لم تستطع هذه الدول أن تجعل الأرض تنفعل لها بنسبة مائة فى المائة، لماذا؟

هذه النقطة تحتاج إلى شىء من الإيضاح، فالله سبحانه وتعالى قد خلق هذا الكون، وجعل من قوانين الحياة أنها تتم لأسباب، من يزرع الأرض ويهتم بها ويبحث عن آيات الله فيها، تنفعل له، سواء كان مؤمنا أو كافراً، فالله سبحانه وتعالى خلق ما فى الأرض جميعاً وخلق لها الأسباب التى تتفاعل بها، والقوانين التى تحكمها، والله سبحانه

وتعالى حين قال كلمة ﴿ كُن ﴾، تم الخلق فى اللحظة نفسها، ولكن لأسباب تفاعلت فى السماوات والأرض فى ستة أيام، وهى ستة أيام كأيام البشر، لأن القرآن يخاطب الإنسان، ومن هنا فإن كل ما يتحدث عنه موجه إلى العقل البشرى، سواء كان ذلك حاضراً أو مستقبلاً، مما يخفى على عقولنا الآن، ولكن هذه القوانين والأسباب لا يمكن أن تكون قيدا على قدرة اللّه سبحانه وتعالى، ذلك أن اللّه لو قضى بالأسباب وحدها فى الأرض، لعبد الناس الأسباب وحدها، ونسوا المسبب أو الخالق، ولذلك بقيت طلاقة القدرة فى الكون، لتلفت الناس إلى أن الذى خلق الأسباب لا تقيده هذه الأسباب فى قدرته، ولكنه يفعل ما يشاء، ووقتما يشاء، ولكن طلاقة القدرة لا تحدث إلا بين حين وآخر، لأنها ليست قانون الأرض ولا هى وسيلة الحياة فيها.

إذا حدثت طلاقة القدرة كل يوم انتفت الأسباب، ولم يعد لقانون الدنيا وجود، ولكنها تأتى لفتة، وهى فى مجيئها مكلفة من اللّه سبحانه وتعالى، تكون مؤثرة حتى يحسها الإنسان ولا تمر مرورا عابرا ؛ لذلك نأتى ونجد أن محصول الحبوب فى دولة كبرى تأخذ بالتكنولوجيا الحديثة قد انخفض أو أصابته كارثة، ومعنى هذا أن الأرض قد رفضت أن تنفعل بالأسباب ونتساءل نحن، إن الأرض هى الأرض، والطرق العلمية هى الطرق العلمية، والماء هو الماء، فما الذى تغير؟

أقول إنها لفتة من اللّه سبحانه وتعالى حتى لا نعبد الأسباب ونترك اللّه، ولكن حتى هذه اللفتات، يحاول الإنسان بقدر طاقته أن يجعل لها قوانين سببية مع أنها جاءت لتلفت الناس إلى القدرة الإلهية التى هى فوق الأسباب.

هذا الحديث قد لا يعجب أناساً كثيرين، من أولئك الذين تعلقوا بالحياة المادية، ذلك أنهم ينسبون إلى الإسلام، أنه دين يحض على التخلف بسبب الإيمان بطلاقة القدرة، ويرددون قول اللّه تبارك وتعالى: ﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾، على أساس أنه مدعاة ودعوة صريحة لعدم العمل، فإذا كان اللّه يرزق من يشاء بغير حساب، فلماذا العمل والتعب، ولماذا السعى وراء الرزق، مع ما يورثه للنفس من مشقة، وقبل أن أجيب على هذا السؤال لابد من إيضاحين.

الإيضاح الأول: أنه إذا كانت طلاقة القدرة تعطى، فإنها كما أوضحت لا يمكن أن تصبح قانون الكون ؛ لأن طلاقة القدرة هى قانون الآخرة، وليست قانون الدنيا، ففى الآخرة يأتيك ما تشتهى بمجرد أن يجول فى خاطرك أو تفكر فيه، لا عمل فى الآخرة ولا سعى، وإنما عطاء من اللّه بلا حدود ولا قيود، أما فى الدنيا فهناك قانون الأسباب، ومعه طلاقة القدرة.

والإيضاح الثانى: أن لكل إنسان رزقاً يعلمه ورزقاً قد لا يعلمه، وإذا كان الكافر

يحدد الرزق بالمال وحده، فإن المؤمن يحدد الرزق بعطاءات كثيرة من الله سبحانه وتعالى، فحب الناس لك رزق، والبركة فى بيتك رزق، والبركة فى صحتك وأولادك رزق، إلى آخر ما تنطبق عليه كلمة الرزق. نعود مرة أخرى إلى نهاية الآية الكريمة ﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: ٣٧]، لنطرح قضية هامة معاصرة تفيق هؤلاء الناس إلى صدق قول الله.

الذين يطعنون هذا الدين يعبدون الأسباب ويتخذونها إلها، فكل رزق عندهم مساو للعمل الذى يتم من أجله، فإذا عملت ليل نهار زاد رزقك، وإذا عملت بضع ساعات قل رزقك، وهكذا.. تلك هى القاعدة التى يتبعونها، كل رزق مساو للعمل.

نقول لهؤلاء الناس إن هذا قد يكون صحيحاً لقاعدة عامة، ولكن الله يرزق من يشاء بغير حساب، ولنلاحظ فى نهاية الآية الكريمة: ﴿ مَن يَشَآءُ ﴾، ولم يقل سبحانه وتعالى: «أرزق كل الناس بغير حساب»، ولكن كل إنسان له رزق معلوم على قدر ما أتاحه الله له من عمل وجهد، وتبقى المشيئة أو طلاقة القدرة تعطى بغير حساب وبغير أسباب، وإذا نظرنا إلى دول البترول مثلاً، تلك التى تملك القوة الحقيقة فى المال أو فى الرزق فى العالم كله، إذا نظرنا إليهم نجد أنهم أغنى الناس فى العالم كله رزقاً ومالاً، بل هم فاقوا فى الرزق تلك الأمم التى فاقتهم فى العمل وفى العلم، فأصبحت تتجه إليهم ليدعموها فى الرزق كأمريكا وأوروبا الغربية وهم أكثر عملاً وعلماً، تتجه إلى دول البترول لتقترض منهم الملايين لتدعم دولا. وتحاول أن تجذب أموال دول البترول إلى بلادها، بل إن دول البترول تستطيع أن تفلس أكبر دول العالم كأمريكا وألمانيا الغربية واليابان، إذا هى سحبت دعمها الاقتصادى لها، وأوقفت تعاملها معها، فالذى يملك القوة الاقتصادية فى العالم دول البترول التى لا تتحكم فى رزقها فقط، ولكن فى اقتصاد العالم كله، بشهادة غير المؤمنين والماديين فى هذا العالم.

وإذا قلنا إن دول البترول قد وصلت إلى المركز الذى يتحكم فى اقتصاد العالم أجمع، فلابد أنها قدمت حسب النظرية المادية السببية من العلم والعمل، ما قدمته دول العالم أجمع، وهذا غير صحيح، بل إن بعض هذه الدول تعمل على استخراج البترول منها شركات غربية من الدول التى تخضع اقتصاديا لدول البترول، والعمل الذى تم، تم بواسطة خبراء وآلات ومعدات تكنولوجية استوردت من دول أخرى، فكيف يحدث هذا إذا لم يكن الله سبحانه وتعالى ﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾، ولقد شاءت قدرة الله أن يتم ذلك فى أمة إسلامية، ويكون برهاناً صادقاً على كلام الله.

ولو أن القاعدة على إطلاقها، أن الأسباب هى التى توجد الرزق لما كان ذلك يمكن أن يحدث، ولما كانت دول البترول تستطيع أن تكون أكبر قوة اقتصادية فى العالم، وفى زمن قياسى لا يستطيع العلم والعمل خلاله أن يعطيا بهذه الوفرة وبهذا السخاء، ذلك لكى

تتطور دولة أو عدة دول لتصبح أغنى دول العالم، فإن ذلك يتطلب بجانب العلم والعمل فترة زمنية طويلة، ولكن هنا لا الزمن ولا العلم ولا العمل يتناسب مع الرزق، إذن من الذى أوجد هذا الرزق؟ ومن الذى أعطاه؟ الله سبحانه وتعالى مصداقاً للآية الكريمة ﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾، وهنا أن يتوقف الحكم المادى الغربى الذى يأخذ بالأسباب ولا يعترف بغيرها، والذى يطعن فى الآية الكريمة ﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾، ويدعى أنها لا تتمشى مع تطورات العصر ومقاييس العلم والزمن، نقول له قبل أن تتسرع فى اتهامك، فقد أتينا لك بمثل من العصر الذى تعيش فيه، ولم نأت لك بمثل من التاريخ ؛ حتى لا تقول حكاية مكذوبة أو أسطورة من الأساطير، ولم نأت لك بنبوءة ؛ حتى لا تقول غيب لن يحدث، ونحن نقول لك قبل أن تتسرع فى اتهامك، تأمل الكون، تجد فى كل مكان لله رزقاً بغير حساب، هذا الرزق يلقى بالأسباب بعيدا، لتأتى طلاقة القدرة وتعلن أن الله يفعل ما يشاء، عندما يشاء وكيفما يشاء، وأنه إذا كانت الأسباب موجودة فإن طلاقة القدرة موجودة منذ خلق الله الأرض.

إذن.. فبداية العمل باسم الله هى استعانة بقدرة الله سبحانه وتعالى فى الكون، ورد الفعل إلى الفاعل، الذى يحدث أن الأسباب المادية تعطينا ظاهرة الحياة الدنيا وتنظم سيرها العادى، ولكن نسبة العمل إلى الأسباب وحدها تبعدنا عن الله سبحانه وتعالى، ولقد مكن الله بعض خلقه من الأسباب فى الأرض، ليسير فى الكون، وتمضى الحياة، فهذا رئيس الدولة، وهذا ميسر له أسباب النفوذ والسلطان، وهذا ميسر له أسباب المال إلى آخر ما نراه فى الدنيا، وجعل الله العطاء ظاهرا فقط من هذه الأسباب ليسير الكون، ثم ماذا حدث؟ كانت الأسباب أو حاول بعض الناس الماديين أن يتخذوا له ما يطلب، وهذا يملك الجاه والسلطان، وهو ظاهرا يستطيع أن يعطينى ما أريد إذا فعلت له ما يطلب، وهذا ظاهر الحياة الدنيا.

هب أن هؤلاء الناس لا يخشون الله، وأنهم قد طلبوا منى أن أفعل ما يغضب الله من أجل مال، أو جاه أو سلطان، لو كنت أعبد الأسباب وحدها لنفذت لهم ما يريدون لأصل إلى ما أريد، فلو قالوا اقتل، لقتلت، ولو قالوا اظلم، لظلمت، ولو قالوا أفعل كذا وكذا مما يغضب الله، لفعلت، إحساساً منى فى أن عطاء الأسباب فى يد هؤلاء وحدهم.. وأن مخالفتهم ستؤدى بى إلى الحرمان من مقومات الحياة، وأن طاعتهم ستعطينى الحياة الرغدة التى أتمناها، وهكذا وبغير نظر إلى ما قال الله، أفعل، ولا تفعل، أنطلق لأحقق هوى شهوات البشر، ولو كانت تغضب الله، وهكذا يصبح الهوى الشخصى والغرض البشرى هما أساس الحياة فيفسد الكون كله، ويصبح الحكم هو شهوة الحاكم، وليس دين الله سبحانه وتعالى.

هذه هى خطورة الأخذ بالأسباب وحدها، وهى خطورة تعرض الكون كله

للاختلال وتضييع موازين العدل، وتكثر من البغى والفساد فى الأرض، وما من أمة عبدت الأسباب إلا انتشر فيها الظلم، وعم فيها الإرهاب، وضاع فيها الحق، واستعبد الإنسان.

إن إطلاق الأسباب وحدها فى الكون يؤدى إلى عبادة الفرد، وذلك يؤدى إلى ظلم عظيم ولذلك كان لابد من طلاقة القدرة لتصحيح المسيرة ولتفيق الناس، وتجعلهم يعلمون أن الله هو الذى أعطى الأسباب ويستطيع كما أعطاها أن يأخذها، وأن العبادة لله وحده، فمن ترك المسبب وعبد الأسباب، فقد ضل ونسى الله، ولذلك فنحن نتعجب من ضعيف لا حول له ولا قوة يمكنه الله من قوى، ومن كان لا يملك الجاه والسلطان ثم أصبح طريدا يبحث عن إنسان فلا يجد حتى من يصافحه، ومن ينتقل من الحكم إلى السجن وبالعكس إن ذلك يحدث أمامنا يذكرنا بقدرة الله سبحانه وتعالى وقوة المشيئة، وأن الله هو الذى يعطى الملك والجاه والسلطان، فإذا عبد الناس هذه الأسباب وانطلقوا يسجدون لها، أزالها الله، لماذا؟ حتى يفيق الناس ويعلموا أن الله سبحانه وتعالى هو الذى أعطى الأسباب، وأن هذه الأسباب ليست ذاتية للحاكم أو صاحب السلطان.. ولو كانت ذاتية لما زالت عنه، ولكن الله سبحانه وتعالى لأنه هو الذى أعطى الأسباب يستطيع أن يزيلها، وأمام هذه الحكمة التى تحدث فى عالمنا كل يوم، يسجد الناس لله بدلا من السجود لغير الله، سواء أكان أسبابا أم بشرا، ويحسون أن القوة والمنعة هما من الله وليستا من أى إنسان كصاحبى الجنة فى سورة الكهف قال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ۝ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ۝ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ۝ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ۝ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ۝ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ۝ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ۝ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ۝ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ۝ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ۝ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ۝ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ۝﴾ [الكهف].

وقارون فى سورة القصص: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ۝ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝

وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [القصص].

وأصحاب الجنة في سورة القلم: ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [القلم].

حين نبدأ باسم الله، فإننا نبدأ العمل ومعنا قدرة الله سبحانه وتعالى تعيننا على العمل، والفعل عادة يحتاج إلى أكثر من صفة، فإن كنت تريد عملاً يحتاج إلى قوة، تقول باسم القوي حتى تمدك صفة الله سبحانه وتعالى بالقوة.. وإذا أردت علما فإنك تبدأ في الاستعانة باسم الله العليم، ليمدك الله من لدنه بالعلم، وإذا كانت الحكمة هي مطلبك تقول باسم الله الحكيم، وإذا كان ما تريد أن تستعين به هو القهر، استعنت بالله القاهر.

إذن.. فأنت في كل مرة تستعين باسم الله، متخذا من صفاته سبحانه وتعالى ما يناسب العمل الذي تنوى القيام به، ولكن الأعمال والأفعال لا تحتاج إلى صفة واحدة، بل إلى صفات كثيرة، بل إن أتفه عمل يحتاج إلى أكثر من صفة، بل إلى صفات متعددة، ولا تعتقد أن هناك عملاً يحتاج للقدرة وحدها، وإنما يحتاج للعلم مع القدرة، ويحتاج للحكمة، ويحتاج إلى أشياء أخرى كثيرة.

ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى، بدلاً من أن يثقل عليك صفات المجالات للفعل، قال لك قل، ﴿ بِسْمِ اللَّهِ ﴾؛ لأن هذا الاسم يجمع كل الصفات، ويعينك على كل الأمور، فإذا قلت: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ ﴾، فكأنك قلت باسم القوي، وباسم القادر وباسم المهيمن، وباسم الرحمن، وباسم الرحيم، وبكل الأسماء الحسنى، لماذا؟ لأنك أتيت باسم الذات الموصوفة بصفات الكمال، ولقد اختلف عدد من العلماء حول ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾، وهي موجودة في ١١٤ آية من القرآن الكريم، هل هي من آيات السور نفسها، بمعنى أن كل سورة تبدأ بـ ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾، تحسب البداية على أساس أنها من آيات السورة، أم أنها جاءت في فاتحة الكتاب، ثم بعد ذلك كفواصل بين السور، ورجح بعض العلماء أن ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ آية من آيات القرآن الكريم، ولكنها ليست آية من السورة نفسها، ولهذا السبب فإنك تسمع بعض

الأئمة حين يقيم الصلاة ويقرأ الفاتحة، يقرأ ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ فى سره، ثم بعد ذلك يبدأ بـ ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ويستكمل قراءة الفاتحة.

وفاتحة الكتاب هى قسمة بين الله وبين العبد، الله سبحانه وتعالى يقول فى حديث قدسى: «قسمت الصلاة بينى وبين عبدى»[1]. ويعنى بالصلاة فاتحة الكتاب، بدليل التفسير الذى جاء بعدها، وكون الله سبحانه وتعالى لم يقل فى حديثه القدسى قسمت الفاتحة بينى وبين عبدى، ولكنه قال قسمت الصلاة بينى وبين عبدى، ذلك يدل على أن فاتحة الكتاب هى جوهر الصلاة، والفاتحة قسمها الله سبحانه وتعالى إلى نصفين، نصف له جل جلاله، ونصف لعبده، أما الذى لله سبحانه وتعالى فثلاث آيات هى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٢ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝٣ ﴾ [الفاتحة]، والآيات التى هى للعبد: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٤ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٥ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝٦ ﴾ [الفاتحة]، وهنا نلاحظ أن ﴿ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ جاءت بعد: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ ﴾ فأنت حين تقرأ الفاتحة تقول: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾، ثم بعد ذلك تقول: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٢ ﴾، فكأن ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ الأولى التى قلتها إنما هى بداية للعمل، والعمل يتم للوصول إلى غاية ونتيجة، فإذا بدأت ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾، مستعيناً بالله سبحانه وتعالى وبقدرته، متجهاً إلى الله سبحانه وتعالى طالبا رحمته وغفرانه، فلا يؤاخذك بما فعلت فى الماضى، وينزل رحمته عليك لتبدأ العمل الذى تنوى القيام به.

فإذا أنعم الحق تبارك وتعالى عليك بإتمام العمل، فماذا تكون النتيجة الطبيعية لذلك؟ هى أن تقول: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾، ثم بعد ذلك تعود فتقول: ﴿ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾، شاكراً لله سبحانه وتعالى رحمته التى أمدك بها سواء توفيقاً أو إعانة، ثم بعد ذلك تمضى فتقول: ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝٣ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾.

وقد قال رب العزة جل جلاله، قسمت الصلاة بينى وبين عبدى ثلاث لى وثلاث له، فإذا قال: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾، قال الحق: «حمدنى عبدى»، وإذا قال: ﴿ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾، قال الحق: «أثنى على عبدى»، وإذا قال ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾، قال الحق تعالى: «مجدنى عبدى»، وإذا قال: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، قال الحق تبارك وتعالى: «هذه لى وله، منه العبادة ومنى العون ولعبدى ما سأل»، والثلاث

---

(١) جزء من حديث رواه مسلم [٣٨/٣٩٥]، وأبو داود [٨٢١]، والترمذى [٢٩٥٣]، والنسائى فى المجتبى [٩٠٩]، وابن ماجه [٣٧٨٤]، وأحمد فى المسند [٢/ ٢٤١] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه.

التالية ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝ ﴾ يقول الحق تعالى: «يكون لعبدى ما سأل».

والحق تبارك وتعالى بدأ الحديث القدسى بقوله: «الحمد لله»، لم يقل سبحانه وتعالى إذا قال العبد: «بسم الله الرحمن الرحيم» أجبته بكذا، ولكنه جل جلاله بدأ حديثه القدسى بقوله: إذا قال العبد: «الحمد لله»، وبذلك دل على أن فاتحة الكتاب شىء؛ والتسمية الاستهلالية شىء آخر، فالتسمية الاستهلالية من القرآن وليست من نص السور؛ لأن الله سبحانه وتعالى حين قال قسمت الصلاة بينى وبين عبدى لم يبدأ الفاتحة بقوله تعالى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾، ولكنه قال تعالى: الحمد لله ولذلك تقول: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ فى الصلاة سرا.

ويريد الحق تبارك وتعالى بالتسمية الاستهلالية ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ أن يذكرنا دائماً أننا ندخل عليه من باب الرحمة، أكثر من أن ندخل عليه من باب العمل، والإنسان خُلق خطّاء، والإنسان خُلق ظلوماً.. وسيدنا رسُول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لن يدخل أحدكم الجنة بعمله إلا أن يتغمده الله برحمته»[1]، قيل: حتى أنت يا رسُول الله؟ قال عليه الصلاة والسلام: «حتى أنا».

وأنت إذا استعذت بالله، فإنك تستعيذ برحمة الله سبحانه وتعالى، لأنك لو لم تستعذ بعدل الله الذى لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ولولا رحمة الله ما بقيت لنا نعمة، ولو يؤاخذ الله الناس بذنوبهم ما بقى على ظهرها من دابة، وأنت لو لم تستعذ بالله، لما وجدت سبيلا إلى جنته، فذنوب الإنسان فى الدنيا ومعاصيه لا تحصى ولا تعد، إذا تكلم فقد ينم، وإذا حكم فقد يظلم، وإذا ظن فقد يسىء، وإذا تحدث فقد يخطئ، وإذا شهد فقد يبتعد عن الحق، هذه أشياء يرتكبها كل واحد منا مئات المرات، وبدرجات متفاوتة، فما من إنسان لم يصدر عنه فى يوم من الأيام كلمة تحمل معنى النم، ولو مرة، ولم يصدر عنه حكم بعيد عن الصدق فى أى أمر من أمور الحياة وجانبه الحق، ومن منا لم يسئ الظن بإنسان كل يوم، ومن منا لا يخطئ الحديث ولا يبتعد عن الحق ولو خطوة واحدة، ومن منا ذلك الذى يستطيع أن ينسب الكمال لنفسه، وأن يخلص هذه النفس من هواها، وأن يبعدها بعدا كاملا عن كل خطيئة، من ذا الذى يستطيع أن يدعى أنه منذ أن يستيقظ حتى ينام لم يخطئ خطأ، ولم يرتكب إثما ولو صغيرا، ولم يهدر حقا لإنسان.

إن الذين يبذلون أقصى جهدهم فى طاعة الله لا يصلون إلى مرتبة الكمال، فالكمال

---

(١) رواه البخارى [٥٦٧٣]، ومسلم [٢٨١٦/٧٢]، وابن ماجه [٤٢٠١] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «لن يدخل أحدا عمله الجنة. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: لا، ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله بفضل ورحمة فسددوا وقاربوا ولا يتمنين أحدكم الموت إما محسنا فلعله أن يزداد خيرا، وإما مسيئا فلعله أن يستعتب».

لله وحده، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «كل بنى آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون»[1]، والله سبحانه وتعالى يصف الإنسان فيقول: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، والشيطان يحاول أن يقعد بالإنسان عن الصراط المستقيم، وأن يمنعه عن طاعة الله.

ولذلك كان لابد من باب الرحمة يدخل منه البشر إلى الله سبحانه وتعالى، وأن يكون هذا الباب مفتوحاً على مصراعيه، يهرع إليه كل عاص ليقول: يارب عدت إليك وأنا نادم على ما فعلت، فتقبلنى، حتى أن عددا من كبار الزاهدين والمتقربين إلى الله، ربما ارتكب فى بداية حياته باباً من أبواب المعصية ثم تاب إلى الله فتقبّل توبته، وحسن إسلامه، وإذا نظرنا إلى بداية الإسلام نجد أن رجالاً ونساء من الذين حاربوا هذا الدين فى أوله، قد حسن إسلامهم، ورسخوا فى إسلامهم ليصيروا عوناً ونصرا لدين الله بعد أن كانوا حرباً عليه، وغفر الله سبحانه وتعالى لهم ما ارتكبوه فى أيام الجاهلية، وفتح لهم أبواب رحمته ورضاه ليصبحوا من أئمة هذا الدين.

ولكن لماذا قال الله: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾، ولماذا قرن اسمه بـ ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾، حتى إذا قلت لأى عاص ابدأ عملك باسم الله يقول لك: قد صنعت كذا وكذا، وأنا أستحيى أن أستعين بالله بعد أن عصيته وأغضبته، تقول له: إن الله سبحانه وتعالى علم ذلك أزلاً، ففتح الباب لكل عاص يريد أن يتوب إليه ويستعين به، فقرن اسمه جل جلاله بـ ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾، حتى تتذكر أنك لو كنت ارتكبت معصية فإن الباب مفتوح، ولو قلت إننى قد عصيت الله نقول لك إن ذلك لا يمنع من الاستعانة بالله ؛ لأنه رحمن ؛ ولأنه رحيم، ولا تمنعك معصية من أن تستعين باسم الله فى كل عمل ؛ لأنها الطريق إلى التوبة، وإلى الإيمان، الله سبحانه وتعالى يطلب منك أن تستعين به فى كل أمر من أمور الدنيا، وأنت إذا استعنت باسم الله الجامع لكل صفات الكمال أعانك، فإن كنت عاصياً فلا تعتقد أن الله قد طردك من رحمته، أو يتخلى عنك إذا رفعت يدك إلى السماء واستعنت به، أو قد غضب عليك حتى أنه لا يستجيب لك عندما تستعين به، إنه سبحانه وتعالى يطلب منك أن تستعين به، ولذلك فقد وضع لك صفة ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾، حتى تتذكر أن بابه مفتوح دائماً، وكما قلت إنه لولا رحمة الله ورحمانيته لما بقيت لنا نعمة.

إذن.. فنحن نعيش معاصينا فى مجال جلالات ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ وجلالات ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾، ولذلك حينما يأتى الحق تبارك وتعالى ويعرض نعمه على الخلق، ثم يعرض بعد ذلك ما فعل الإنسان بهذه النعم يقول: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾

---

(١) رواه الترمذى [٢٤٩٩]، وابن ماجه [٤٢٥١] عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه وحسنه الألبانى.

[إبراهيم: ٣٤]، ولقد جاءت هذه الآية الكريمة في القرآن الكريم مرتين: مرة في قوله تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل: ١٨]، والآية الثانية يقول: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، سياق الآية الأولى تجليات الرحمة، وسياق الآية الثانية جبروت الإنسان العاصي يأخذ نعمة الله ويستغلها في معصيته، ولذلك قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾ [إبراهيم: ٢٨].

وعندما يقول الحق جل جلاله وهو يعدد نعمه غفور رحيم، قال ذلك لأن النعمة تقتضي ثلاثة عناصر، عنصر هو المنعم، وعنصر ثان وهو المنعم عليه، وعنصر ثالث وهو النعمة، وفي حديث النعمة نجد أن الله استخدم حرف «إن» - وهو حرف شرط - ولكنها تستعمل في المشكوك فيه، بينما «إذا» حرف شرط تستعمل في المحقق، شيء محقق تريد أن تتحدث عنه تستخدم «إذا» فإنك تقول إن حدث هذا، فأنت إذن تشك في أنه سيحدث، ولكنك إذا قلت إذا حدث هذا، فإنك تعرف أنه سيحدث.

ولقد استخدم الله سبحانه وتعالى «إن» بلهجة التشكيك فقال: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾؛ لأنه أراد أن يقول لنا إنه ما من بشر سيقبل على عد نعم الله، إنه يخاطبنا بلهجة الشك لأن هناك شكا في أن يقبل أحد على عد نعم الله، ولم نسمع حتى الآن عن إنسان جاء بسجل وبدأ يحصي فيه نعم الله سبحانه وتعالى، لماذا؟ لأن الإقبال على إحصاء يكون على شيء تستطيع أن تحصيه، فمثلاً في مراكز الإحصاء تحصى عدد البشر كل عام؛ لأنها تستطيع أن تقوم بالإحصاء، وتحصى عدد المنازل والشقق والإنتاج الزراعي والحيواني وغيره، أما الذي لا تستطيع أن تحصيه فهل تقبل على إحصائه؟ هل سمعت عن مركز للإحصاء قام بإحصاء الذرات الموجودة في الأرض من الرمال، لم نسمع عن هذا طبعاً، لماذا؟ لأنه لا أحد يستطيع، وبالتالي ما دام يظن أن هذا غير ممكن فإنه لا يقبل عليه، ونعم الله لا تعد ولا تحصى، ولم نسمع رغم تقدم آلات الإحصاء بالعقول الإلكترونية وغيرها التي جعلت عدداً من الإحصاءات غير الممكنة في الماضي سهلة الحدوث الآن، لم نسمع أن مؤسسة أو هيئة قامت بإحصاء نعم الله على الإنسان في الأرض، لماذا؟ لأنه من المستحيل ذلك، فشهيق الهواء الذي يدخل الصدر نعمة، إن هو لم يدخل فقد الإنسان حياته، وزفير الهواء الذي يخرج من الصدر نعمة، إن لم يخرج من الصدر فقد الإنسان حياته، وشعاع الضوء الذي ينعكس على العين نعمة؛ لأنه ينعكس على العين ويمكنها من الرؤية، والعين حين تستقبل شعاع الضوء وتعكسه لترى نعمة، الخطوة الواحدة نعمة، وحركة أصبعك نعمة، وأن تبتلع ريقك نعمة، وأن ينبض قلبك نعمة، وأن يتحرك لسانك بالكلام نعمة.

كل هذا وملايين غيرها نعم، ونعم كبيرة على كل فرد فينا، والإنسان لا يحس

بالنعمة، لماذا؟ لأنه كما قلنا يعتاد عليها ويألفها، فيعتقد أنها حق مكتسب له وينسى المنعم، إن كل إنسان على وجه هذه الأرض يسبغ الله عليه ملايين النعم، وإن لم يعطه شيئا جديدا يحس به، فعندما يكون نائما ويستيقظ فقد عادت إليه نعمة الحياة.. وإذا قام من سريره فهذه نعمة الحركة، وكل حركة فى حياة الإنسان نعمة، ولكن بعض الناس لا ينتبه إلى نعم الله التى ينعم بها وهو جاحد، ومهما تعددت وسائل الإحصاء وتطورت فإنها ستظل عاجزة، وسيظل الإنسان عاجزا عن إحصاء نعم الله.. ولو أراد فلن يستطيع.

واستمرار النعمة دليل على أن المنعم غفور رحيم، ومن رحمة الله أنه لا يعطى النعمة للشاكرين وحدهم، أو للمؤمنين وحدهم، ومن رحمته أنه لا يحرم من يعصيه من نعمه، ولو لم يكن الله رحماناً رحيماً وغفورا رحيما لمنع نعمه عمن عصاه، وهنا يستوجب الله الحمد على كل النعم، وقد بدأت الفاتحة وهى أم الكتاب بالآية الكريمة ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ وأسباب الحمد فى الكون كثيرة؛ فآيات الله فى الكون كله، فى لؤلؤة بديعة التكوين، فى زهرة يملؤها العبير وتختلط فيها الألوان، عطاءات الله كثيرة تستحق الحمد، والحمد يأتى أيضاً خوفاً من العقاب، فأنا موجود تحت سيطرة الخالق، فإذا ارتكبت خطأ كان فى استطاعته أن يبطش بى على الفور، فمن أنا من قدرة الله؟ وما هى قوتى أمام قوته سبحانه؟ إذا أراد سبحانه وتعالى أن يهلك الكون كله لاستطاع فى لحظة وأنا أبطش تغرنى قوتى، وأنسى الله فى ساعات يسرى، آخذ المال الذى أعطانى إياه وأستعمله فى معصيته، والصحة التى منحها لى الله فأستعملها فى الإيذاء أو فيما لا يرضيه وأمضى فى الدنيا أحاول أن آخذ منها كل ما أستطيع، وليس فيها ما يؤخذ لأنى تاركه جميعاً، يقصدنى الخلق لأزيل ظلما فأمتنع، أو أفعل خيرا فتأخذنى العزة بالإثم.. ويطلب منى أن أسعى فى معروف فأرفض، أملأ الدنيا بالنميمة والحقد وأرتكب الذنوب والمعاصى، وأبحث عن الأمان فى جاه الدنيا، ولا أمان إلا فى وجه الله، ثم تأتى أيام يملؤها العسر والشدة، وأتطلع إلى السماء وأصيح يارب، وكان عدلاً ألا تجاب نفس ملأتها الخطايا واستغرقتها الحياة الدنيا، ولكن الله يفتح بابه ويمد يده، ويمسح الشقاء ويزيل الهم، لأنه قدم الرحمة على البطش وقدم العفو والمغفرة على العقاب.

فى كل يوم يموت الألوف، ويهبنا الله نعمة الحياة و البقاء فى الوجود، وعندما أفتح عينى فى الصباح، لابد أن أقول الحمد لله لأنه منحنى نعمة الحياة والوجود، وفى كل يوم تقع مئات الحوادث ويزول ثوب العافية عن الألوف من البشر، وتحدث الكوارث ويكون ضحاياها الألوف من الناس فى العام، فإذا قمت من النوم فلابد أن أنطق بالحمد لله، وإذا مضى اليوم ولم يزل الله عنى ثوب العافية فلابد أن أصيح من أعماقى الحمد لله، والله نجانى من حوادث اليوم وشروره، وسترنى وأنا مذنب، وأعطانى وأنا غير مستحق للعطاء.. وفتح لى طريقاً مغلقاً أو زال من طريقى إنساناً يضايقنى، أو عرفنى مالم

أكن أعرفه، ألا يستحق هذا منى أن أقول الحمد لله، إننى لو قضيت يومى كله أعد نعم الله على ما أعطانى ووهبنى، وما منعه عنى ونجانى لكان اليوم كله لا يكفى حمدا لله.

ورحمة من الله تعالى بالعالمين جعل الشكر له والحمد فى كلمتين: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾، والعجيب أنك إذا حاولت أن تشكر بشرا على جميل أسداه إليك فتبقى ساعات وساعات تلهج بالشكر والثناء وتعيش ساعاتك بل وأيامك قبل لقائك لهذا الشخص تعد الكلمات وتختار العبارات تضيف وتحذف وتسأل الناس رأيهم علك تصل إلى قصيدة أو خطاب يلهج بالشكر لهذا الإنسان على عمل طيب واحد قدمه إليك ولكن الله سبحانه وتعالى يعلمنا عسى أن يعرف البشر مدى النعم وقدرة المنعم فيحس فى داخل قلبه بعظمة الله ويوفى البشر حقهم فى الشكر بدون ذلة تدنى النفس أو مبالغة تصيب الإنسان بالغرور أو نفاق يرتكب به البشر المعاصى، إن الله الذى يعطى بغير حساب وينعم على كل المخلوقات يكتفى بكلمتى ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ يضعهما فى أول كتابه فى فاتحة الكتاب، ويضعهما خاتمة لكل حياة مؤمنة فى الأرض فيقول تعالى: ﴿ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [يونس: ١٠].

ولو أن الله تبارك وتعالى ترك صيغة الحمد بدون أن يحددها لكان من الصعب على العقل البشرى أن يجد الصيغة المناسبة ليحمد هذا الكمال الإلهى، ومهما أوتى البشر من بلاغة وقدرة فهم عاجزون عن أن يصلوا إلى ما يفى الله حق قدره ويكون شكرا على نعمه، فكيف نحمد الله والعقل البشرى عاجز عن إدراك قدرته والعقل البشرى مغرور بما يسره الله له فى الدنيا من علم وكيف نحمد الله والكلمات تعجز عن التعبير عن الحمد لله مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ ﴾ [الزمر: ٦٧]. وإذا كان البشر عاجزين عن أن يفوا للقدرة الإلهية بالتقدير فكيف يستطيعون أن يفوا لها بالحمد وكيف يمكن للمخلوق المحدود أن يحمد الكمال الإلهى ولذلك علمنا الله سبحانه وتعالى فى فاتحة الكتاب كيف نحمده.

والمساواة بين البشر جميعاً فى توحيد ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ فيها يسر منهج الله ورحمته بعباده، ولو أن الله سبحانه وتعالى تركها بلا تحديد لتفاوتت درجات الحمد فهذا أمى لا يقرأ ولا يكتب يحمد الله بلفظ بسيط حسبما تستطيع فطرته، وهذا عالم يحمد الله بما أتيح له من قدرات على البلاغة والتعبير ولكن شاء عدل الله أن يسوى بين عبيده جميعاً فى صيغة الحمد ليعطى الفرصة المتساوية المتكافئة بين المتعلم والأمى من عبيده.

وإذا نظرنا إلى النعمة أولاً قبل المنعم عليه لوجدنا أن الإنسان حين يأتى إلى الأرض وقبل ميلاده يقدر الله سبحانه وتعالى سبل حياته ورزقه وعمره، وهل هو شقى أم سعيد وكل النعم التى سينعم بها عليه فى الدنيا، وهكذا تسبق النعمة الوجود البشرى وحين ينزل الإنسان إلى الحياة تكون نعم الله سبحانه وتعالى قد سبقته فينزل الله من صدر أمه لبنا دافئا فى الشتاء باردا فى الصيف معقماً من كل الأمراض بأكثر مما يستطيع العلم بكل قدراته أن

يعقمه، ويجد هذا اللبن جاهزا، فإذا جاع نزل اللبن له وإذا شبع توقف نزوله حتى يجوع مرة أخرى، معين من الغذاء لا ينضب إلا إذا استغنى الطفل عنه والطفل يولد ضعيفاً عاجزا عن الدفاع عن نفسه ولكن الله يهيئ له أبويه ليحولا ضعفه إلى قوة فهما لا ينامان حتى ينام وإذا مرض حملاه إلى الطبيب وإذا جاع وهو عاجز عن الكسب سخر له أبويه يسعيان فى سبيل رزقه، وإذا حاول أحد الاعتداء عليه كان أبواه الدرع الواقية يفديانه بحياتهما ويحرمان نفسيهما من مباهج الحياة ليربياه ويعلماه حتى الذى يموت أبواه يهيئ الله سبحانه وتعالى من يكفله ويصبح أقوى الأقوياء فى العالم ضعيفاً أمام ابنه الصغير وهكذا أوجد الله سبحانه وتعالى لهذا الضعيف النعم التى يحتاج إليها، بل أوجدها له قبل أن يأتى إلى الدنيا فترى الأم تعد للابن ملابسه وسريره قبل أن يولد، كل هذا والطفل لم يأت بعد إلى الدنيا وهو مازال فى بطن أمه، وهكذا نرى أن النعمة تسبق الوجود البشرى.

وإذا كان بعض الناس يقول إن الذى يوفر الحياة للبشر هم البشر بمعنى أن أبا الطفل وأمه وعائلته هم الذين يعدون له سبل الحياة نقول إن هذه سنة الله فى الأرض فهو سبحانه قبل أن ينزل الإنسان إلى الأرض خلقها له وهيأ له ظروف الحياة فيها، فالنعمة سبقت المنعم عليه وآدم عليه السلام خلق بلا ماض فلم يكن له أب يعد له أو أم تجهز من أجله ولكن سبقته النعمة فعاش فى جنة لا يجوع فيها ولا يعرى وهكذا كانت نعم الله سبحانه وتعالى تسبق آدم وتنتظر لتعطيه الحياة الطيبة التى لم يصنعها بشر ولكنها من صنع الله سبحانه وتعالى.

ومن يدعى أن النعم التى تسبق البشر هى من صنع الإنسان ؛ نقول له: إن لبن الأم الذى يعتبر غذاء أساسيا للطفل ليس من صنع البشر ولكنه من صنع الله، وحنان الأم والأب ليس من صنع بشر ولا يستطيع البشر أن يصنع عاطفة قوية راسخة ولكنها من صنع الله.

والإنسان حين يقول: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ فإنه يقطع بأن حمدا لابد أن يكون موجودا فى الكون لماذا؟ لأن هناك أشياء يجدها الإنسان فى الكون تخضع له وتعطيه نعماً بغير قدرة منه وبغير دخولها فى علمه، فلا هو يستطيع أن يقدم لنفسه هذه النعم، ولا هو يمكن أن يدخلها فى سيطرته فالإنسان خلق فوجد الكون مهيأ له، الشمس تدفئه وتعطيه الحياة، والأرض تطعمه الثمر، والمطر ينزل عليه ليسقيه، والهواء موجود أينما كان لتتنفسه بسهولة والنهار ليعمل وينتج، والليل لينام ويستريح. كل هذه الأشياء خُلق الإنسان ليجدها فى الكون، ألا تستحق الحمد؟

إذن.. فنحن حين نقول: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ نعلن أن هناك فى الكون أشياء يجب أن يتم الحمد عليها، نعم كثيرة تجعل حياة الإنسان ممكنة وسهلة فى هذا الكون ولعل نعمة تسخير الكون للإنسان تقتضى وجود الحمد.